حكايا من بلدي

عز الدين الدوماني

الكتاب: حكايا من بلدي

المؤلف: عز الدين الدوماني

رقم الإيداع: 2020/ 16137

الترقيم الدولي: 978-977-493-212-0

الطبعة الأولى القاهرة ٢٠٢٠

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هَذَا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول عَلَى موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

حكايا من بلدي

عز الدين الدوماني

إهداء

إلى شريكة حياتي...

إلى فلذات كبدي...

إلى الأستاذ وائل حمزة مدقق العمل...

إلى الشخصيات الملهمة.

مقدمة

بين يديك عزيزي القارئ، مجموعة من الشخصيات المجتمعية الحقيقية التي رصدتُها في معترك رحلة الحياة، متنوعة في ثقافتها وبيئتها وعملها، وحتى عمرها . هدفتُ من عرض نماذجها الحياتية إلى أن نستفيد من تجربتها في حياتنا، ولكي نأخذ منها العبرة والعظة.

تجلَّى دوري بأن كسوتُ هذه الشخصيات بعضًا من نسج الخيال حتى أسوِّقها للقارئ ليتابع قراءتها، متوقعًا أن مجيء الفكرة بأسلوب مباشر يجعلها جافة قد يعزف القارئ عن متابعتها، لذلك سخَّرتُ الخيال؛ مع علمي أن أعمال الخير جذابة بنفسها بلا رتوش، وبخاصة عندما تكون متنوعة، وممكنة، وفي متناول الجميع. كما هي في الحكايا.

إن شخصيات (حكايا من بلدي) عملت كل منها في مجالها. وأزعم أنها نجحت في إيصال رسالة محتواها بأن لكل منا دورًا مجتمعيًا ينبغي ألا ننساه في مسيرة حياتنا القصيرة، بل يجب ممارسته كلٌّ منا في مكان عمله فلعله يغرس بسمة على ثغر، أو يمسح دمعة تُذرف على خد، أو يبعث أملاً في نفسٍ حاصرها اليأس، أو يداوي جرحًا ما زال نازفًا. الطبيب في عيادته، والمُعلِّم

في مدرسته، والفلاح في حقله، والتاجر في متجره، هكذا دواليك.

إنها خلاصة تجربتي المجتمعية، عايشتُها على مساحة عشرات السنوات. فإن وُفِقتُ في إيصالها فبفضل من الله. وإن جانبني التوفيق فمن نفسي، لكنني ألتمس منك المعذرة؛ لأن نبراسي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الحكاية الأولى

شخصية من بلدي

في حي دمشقي قديم قلما ينافسه حي آخر في المدينة أصالة، تكاتفت جدران بيوتاته الحجرية القديمة، فصارت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، بعدما توطدت علاقة حب بينها لا مثيل لها، فقويت العرى ونُسجت بين بيوتاته وساكنيها ما مكّنهم من إفشال مغريات الحداثة التي حاولت أن تعبث بخصوصية الحي لتغيّر معالمه التي يعتز بها، كما فعلت بما حوله من أحياء أصبحت في طي النسيان، لتتربع مكانها عمارات شامخة متطاولة تتبارى طولًا نحو عنان السماء.

في كل ركن من زواياه تسمع قصة يرويها الحفيد عن الجد، مزهوًا بها، مصرًا على أن يورّثها أحفاده من بعده حتى يمتد عبقها إلى الأبد؛ لهذا لن يسمح أبدًا من جهته ليد التحديث بأن تتسلل إلى حيه فتزيل أصل فخرهم الذي رضعوه كما رضعوا لبان أمهاتهم.

فأهل الحي تعاهدوا على البقاء في حيهم والمحافظة عليه مهما تعاظمت إغراءات التجار، وضغط الدولة وتضييقها عليهم، فهيهات هيهات أن يفرط أحدهم بما يملكه في الحي، فإن تآكل جزء

من البنيان بفعل الطبيعة أو غيرها تهافتوا على ترميمه بأيديهم من دون الاستعانة بأحد من خارج الحي ليحافظوا على سر جماله، فالحي بادلهم حبًا بحب أثمر رغبة في دفع الأذى عنهم، فقرب بيوتاته بعضها من بعض، وضيق أزقته التي لا تسمح إلا بمرور عربة يجرها حصان في أقدم مدينة مأهولة عرفها البشر.

هذا الحي كان يزهو على غيره من أحياء دمشق البعيدة بقربه من مجرى نهر بردى الذي يخترق المدنية من غربها إلى شرقها، مصرًا على تحية عاشقيه القريبين من ضفّتيه يمنة ويسرة، فمع تتابع دبيب الفجر يرسل دفقات مائه قوية حتى توقظ من استهوته غفوة ما بعد الفجر ليلحق بمن غمروا الشوارع، وأشعلوها حركة وحياة كخلايا نحل انطلقت شغالاتها تبحث عن رحيق طالما سعت لتظفر به كي تسكبه شمعًا وعسلًا.

كان الليل في لحظاته الأخيرة يجمّع شتاته ليفسح المجال لمقدمات النهار التي أعلنت عنها أصوات الباعة وهم يتنافسون في ترويج بضاعاتهم علها تنفد سريعًا.

زعيق الأصوات وصل إلى مسامع الراقدين في مضاجعهم فبدؤوا يتصارعون مع متعة غفوتهم فلجؤوا إلى البحيرة الصغيرة التي أنشؤوها في دورهم يرشقون وجوههم بمائها ليعززوا يقظتهم حتى يخرجوا إلى السوق ويسهموا مع سابقيهم في نسج البيع والشراء.

فأحدهم بمجرد أن يصل يسلم على سابقيه ثم يعتذر عن تأخيره

ويعدهم بألّا يتكرر منه..

نشاط المدينة يصل ذروته إذا اكتمل وصول قاصديها من الأماكن المجاورة، وإن اختلفت مقاصدهم ومشاربهم، لكنهم متفقون في نظرتهم إلى جمال دمشق التي استهوتهم، فتراهم يجلسون على جانبي النهر المتربع على عرش قلوبهم وهم يكحلون عيونهم به، فتبدو قريرة بوفود مائه المنطلق نحو محطته الأخيرة في الغوطة الشرقية التي تصدرت قمة الاستجمام فيما حولها، ما جعلهم يختلسون لحظات للمتعة بمرأى وفود الماء المتراقص في مجرى بردى الخالد، وليشهدوا أن ماءه بفضل الله قد منح دمشق الحياة على الرغم من وجودها في بقعة جرداء تزيد مساحتها مع الأيام من جراء تكاثر الكتل الإسمنتية شرقًا وغربًا، فبدت كأنها تزحف بالبنيان الذي يشدها إلى الصحراء..

وعلى الرغم من هذا الوجه المأساوي بقي نشاط دمشق في اطّراد، وزاد جمالها وكثر معجبوها حتى وصل إلى الشعراء فنظموا قصائدهم شاهدة على جمالها الخلاب، وحيويتها، يشاركهم رأيهم فيها علماء الاجتماع وغيرهم فقال بعضهم: (من يتنفس هواء دمشق المتسلل من جبل قاسيون يستمر نشاطه، ويُصعِّب على الغفوة أو التعب أن يتملّكاه مهما يبذل من طاقة في عمله).

في مدارس دمشق الفيحاء تتلمذ طفل من أطفال هذا الحي، وإلى مساجدها اصطحبه أبوه لينهل التقى والورع، وفي حاراتها وأزقة أحيائها لعب ألعاب بيئته مع لداته، وإلى غوطتها خرج مع

أهله مستجمًّا يتمتع بجمال الطبيعة، ويرتع تحت أشجار الغوطة الكثيفة، ويعبث بماء بردى، فأنى نظر حوله وجد خضرة يفوح عبقها الزاكي ليملأ الأثير عطرًا وشذى، فالغوطة تلك أحاطت بمدينته التي أحبها إحاطة السوار بالمعصم.

فلما وصل إلى الصبا شهد جزءًا من مقارعة أبنائها الشجعان لأعدائهم الذين جاؤوا من مكان بعيد غزاة لينهبوا خيرات بلادهم، واستعبادهم، لكنهم سرعان ما ثاروا لتلفظهم دمشق كسابقيهم -وما أكثرهم- حتى تبقى شامخة أبيّة عصية على كل معتد أثيم، ولتكون محط أنظار الأحرار وملجأ الثائرين على الظلم والعدوان كأمثال المجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري ورفاقه الذين هجّرهم الاستعمار الفرنسي من الجزائر.

فمن سمع بالفيحاء تمنّى زيارتها ليرى جمالها؛ لأن من رأى ليس كمن سمع. وليكتشف بنفسه سرها الآسر وصمودها ودفعها لكل غاز داهمها مهما أوتي من قوة بطش وجبروت، فالمدينة بطبعها لا تنام على ضيم منذ الأزل، فقد تمرس أبناؤها على الصمود والمقاومة من كثرة مقارعتهم للبغاة الطامعين فيها؛ ما أصّل لديهم عشق الحرية والشموخ، فلا يسمحون لغاز مهما اشتد ظلمه وبطشه وقوة جبروته بأن يبقى طويلًا فيها بفضل من الله ثم ببركة دعاء سيد البشرية محمد ﷺ لها، وتحبيبه فيها.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم بارك لنا في

شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا. قال: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا)، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: (هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع الشيطان) البخاري.

داهم بلاد الشام على مرور العصور كثير من الغزاة، وأذاقوا أهلها الويلات، وقتلوا منهم الكثير، وحاولوا شراء ضعاف النفوس منهم، ومع ذلك بقيت دمشق موحدة لم تنقسم شرقية وغربية، حضرية وبدوية، ولا طبقيًا بين غني وفقير، بل بقيت متماسكة لتكون مدينة لكل من يقصدها سواء أكان قريبًا أم بعيدًا، عربيًا أم غير عربي، مسلمًا أم غير مسلم. تحتضن الجميع وتفتح لهم ذراعيها وتضمهم إلى صدرها الحنون وترعاهم أحسن رعاية كيلا يشعروا بالغربة والبعد عن أهليهم، بل سرعان ما يعشقونها ويتعلقون بها فتصعُب عليهم مغادرتها. إنها المدينة العجيبة الغريبة، يعيش فيها الفقير، والغني، مكتفيَين بما منّ الله به عليهما من فضل. فقلما تسمع فقيرها يشكو عوزًا أو فاقة. هذا التآلف بين غنيها وفقيرها ولّد جوًا من الحب والصفاء لا حدود لهما.

الصبي الذي عاش فترة الاحتلال الفرنسي، وشهد مقارعة دمشق له، تابع دراسته وتخرج طبيبًا مع بدء جلاء المحتل عنها. في هذا الجو المشحون بالوطنية تضاعفت مشاعر حبه لدمشق ولأهلها، فسعى إلى تجسيده سلوكًا يخدم من خلاله محتاجيها بلا تمييز حي من آخر، وريف من مدينة. فهدفه الأسمى أن يرد جزءًا

مما منحته إياه دمشق الخالدة، فقرر أن يفتح عيادته الخاصة يوم الخميس من كل أسبوع لمعالجة الفقراء من أبنائها وأريافها خلال فترتي الدوام صباحًا ومساء.

كان الفقراء يقصدون عيادته مبكرين صباح كل خميس، يتقاطرون أمامها ملتزمين بدورهم ذاتيًا باستثناء الحالات الخاصة التي لا تحتمل التأخير. كان مراجعوه الفقراء يأتونه من شتى المناطق طلبًا للعلاج، فلم يسأل قط من دخل عيادته عن وضعه المادي أو معتقده الديني أو أصله وفصله، بل كان يعالجه مباشرة خوفًا من أن يجرح شعوره. غير مرة وصل طابور مراجعيه إلى بعد أمتار من عيادته، أما المقتدرون فكانوا ينتظرون حتى ينفضّ الفقراء، أو يقصدون غيره من أطباء دمشق باستثناء الحالات الخطرة. هذه الشخصية المحسنة احتسبت عملها يوم الخميس لله، وأعدّته زكاة لوجه الله تعالى الذي أعطاه الكثير؛ لذلك كان يوصي مرضاه بأن يهيبوا بكل محتاج إلى علاج أن يقصده في عيادته.

كم مرة استمر في علاج رواده من دون انقطاع واصلًا الفترتين معًا من دون ضجر، ما جعل سلوكه الإنساني أنموذجًا يقتدي به – من دونما قصد منه – أصحابُ المهن الأخرى، فمنهم من خصص جزءًا من يوم للعمل الخيري، حتى وصل بطبيب يعتنق اليهودية من أهالي دمشق لأن خصص جزءًا من يوم الجمعة لعلاج الفقراء مجانًا.

قصص كثيرة رويت عن أهل دمشق، فيحكى أن أحد بائعي الخضار والفواكه فتح مضافته وبعض حجرات منزله للناس ليلًا لإيواء الغرباء عن دمشق إذا كانوا عاجزين عن دفع أجرة نزُل خاص، فيأتونه للنوم، وفي الصباح يطعمهم ثم يغادرون.

رب سائل يقول: قرأنا في ثنايا كتب التاريخ أن دمشق بشكل خاص وسورية بشكل عام عاشتا عوزًا كبيرًا في بداية خمسينيات القرن الماضي، فكيف لحالات فردية كهذه أن تؤثر في الكم الكبير من المحتاجين؟

سؤال وجيه وفي موضعه إذا قيس بزماننا، لكن الناس في تلك الفترة تميّزوا بسمة التعفف والترفع عن السؤال، يعيشون مستورين في بيوتاتهم، راضين بما قسمه الله لهم، يخشون إن سألوا أن يفتضح أمرهم فيصل خبر سؤالهم إلى أبناء حيهم فيكون وبالًا على ذكورهم وإناثهم، فأسر المنطقة كلها وقتذاك تعزف عن الزواج منهم أو إليهم.

كما أسهم في التخفيف من وطأة العوز تكافلهم الاجتماعي المفقود في أبناء زماننا إلا من رحمه الله، فناسهم يوقنون يقينًا قاطعًا بقول الرسول الكريم: (ما نقص مال من صدقة)، يعملون بالحديث، مستذكرين ما جرى بينه وبين أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- عندما ذبح شاة أهديت له ثم وزعها على الفقراء. ولما سألها عما بقي منها قالت: لم يبق إلا كتفها. فردّ

سيد البشرية قائلًا قولي: (بقيت إلا كتفها). لقد عدّ رسول الله أن التصدق على الفقراء هو الباقي، فهل من معتبر في زمن كثر محتاجوه، وزاد ثراء أغنيائه..؟

هذا السلوك الراقي الإنساني النادر النابع من سجية الإيثار التي أرساها الدين الحنيف في نفوس أتباعه جسّدها هذا الشخص ومعه كثيرون من أبناء بلدي يتعذر ذكرهم في مثل هذه السطور، لكنني آمل أن يقتدي بهم النشء ليكوّن مجتمعًا متكافلًا متضامنًا تترسخ فيه القيم، وتتربع على القلوب وإن لم تظهر بمسميات كـ(التكافل والتضامن وما شابه)، ليعم نفعها على مساحات الوطن كله، فقد تقضي على الفقر والمرض والعوز أو تخفف من وطأته. نبراسنا قول رسولنا الكريم: (الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه)، فلنبدأ بلا تسويف، وليقدم كل منا أوراق اعتماده للجمعية التي يرغب العمل فيها مع الله، ولله..

* * *

الحكاية الثانية

علّمني

كانت خطتي في إحدى الحصص الدراسية أن أدرب الطلاب على التشبيه التمثيلي، فعدت إلى ذاكرتي فأسعفتني ببيت للشاعر بشار بن برد وجدته أفضل مما في إعدادي الكتابي، ألقيته على مسامع طلابي في مقرر (٨١):

كـأن مـثـار الـنـقـع فـوق رؤوسـنـا

وأسـيـافـنـا لـيـل تـهـاوى كـواكـبـه

ثم أقرأته أكثر من طالب، ودعوتهم إلى تأمل الصورة البيانية في البيت، ولكي أشدّهم أكثر حدّثتهم عن مناسبة القصيدة التي ورد فيها البيت قائلًا: أبيات بشار بن برد ترسم لنا مشاهد معركة وقعت بين جيش يزيد بن هبيرة والي العراقيين، والخوارج بقيادة زعيمهم الضحاك بن قيس الشيباني، في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد، حيث أرسل الخليفة مروان جيش ابن هبيرة لقتال الخوارج لاسترداد البصرة منهم.

فالشاعر يصف الحرب بالشدة؛ الخيل كثيرة وهائجة تثير الغبار عاليًا حتى حجبت كثرته الشمس، والسيوف تتهاوى فوق الرؤوس

مفزعة مرعبة.. فالغبار المثار المتصاعد يشبه الليل الذي يحجب أبصار الناس عن رؤية ما يضم في طياته إلا من الأشياء القريبة جدًا من الناظر، كما يشبّه السيوف التي تتهاوى فوق الأعناق من مكان عال بالكواكب المنقضّة والشهب الساقطة، ولا شك أن في التشبيه جمالًا من حيث تشابه أثر المشبه به وأثر المشبه في النفس.

فإن لظلام الليل وانقضاض الشهب من الروعة والهلع في نفس الإنسان ما لثوران الغبار في الحرب، وما لبريق السيوف وفتكها، غير أننا يجب أن نلاحظ أن الإنسان وإن كان يرهب الليل وتساقط الشهب فيه إلا أن رهبته من ظلام عجاجات الحرب وقراع السيوف أشد لأن الخطر هنا قريب مقصود، وصورة المشبه به تمتاز بالاتساع والشمول والدوام، على حين أن صورة المشبه وقتية ضيقة الأفق.

والتشبيه من حيث إنه حسي تدركه العين، لا من حيث أثره في النفس، فيه مبالغة كبيرة. فإن السيوف المتهاوية تتناوب فيها الحركات صعودًا وهبوطًا، على حين أن حركات الكواكب المنقضة تكون من أعلى إلى أسفل فقط، ثم إن الغبار المتصاعد يتلاحق على شكل موجات، على حين أن الليل سرمد متماثل[1].

وقد أُعجب كثير من الأدباء بهذا البيت الذي أبدعه الشاعر بشار بن برد على الرغم من أنه فاقد للبصر؛ إذ شبه فيه شيئين بشيئين

(١) من كتاب الرائد في الأدب العربي للأستاذ نعيم الحمصي - بتصرف.

حتى الشاعر نفسه كان معجبًا به، فكأنه تعمّد بهذا البيت أن يجاري امرأ القيس في قوله:

كـأن قـلـوب الطير رطـبًـا ويابسًا

لدى وكرها العناب والحشف البالي

فبشار في بيته يصف الحركة والرهبة في النفس وصفًا يعجز عنه كثيرون من المبصرين.

كان تصويري للمشهد وعرضي أمام الطلاب لوحة تقريبية للمشهد محمّسًا، فشاركوني في استخراج جوانب الصورة، كما توصلوا إلى أثرها في إبراز المعنى بأنفسهم. ولكي أؤكد المهارة أكثر ارتأيت أن يستخرج الطلاب الصورة التي تضمنها بيت امرئ القيس، وأوجه الاتفاق بين الصورتين لدى الشاعرين، وأيهما أكثر تأثيرًا في نفس المتلقي..

شرعنا نتناقش فشدني حوارهم شبه الجمعي حتى أنساني الوقت، فسمعت قرعًا خفيفًا على الباب، ذهبت لأفتحه فإذ بمدرس الحصة التالية ينتظر. اعتذرت إليه، ثم عدت إلى الطلاب مودعًا، ووعدتهم بمتابعة النقاش غدًا. توجهت إلى غرفة القسم، وبدأت السلام على الزملاء حتى وصلت إلى رئيس القسم لأجد عنده زائرًا، سلمت عليه معرّفًا بنفسي، كما عرفني رئيس القسم بالزائر.

مرت بضع سنوات على لقائنا الأول لم أعرف عن السيد الزائر شيئًا حتى شاء الله أن يسوق إلى قسمي أحد معارفه، فجاءت سيرة

الرجل على لسانه فسألته عنه، فأخبرني أنه أصبح موجهًا فنيًا.

ولما غدوت موجهًا فنيًا مثله كان لقاؤنا الثاني بوساطة زميل مشترك، ثم توالت اللقاءات في اختبارات تصحيح الثانوية العامة وغيرها، فولّدت تلك اللقاءات بيننا حوارات مختلفة اكتشفت منها أن الكثير من الصفات التي يتحلى بها الزميل أحبذها، وأعمل من أجلها، فزاد قربي منه. وشاء الله فيما بعد أن ينقل عملي إلى حيث عمله، فأصبح لقاؤنا شبه يومي، ما أكّد انطباعي الأول عنه، فنُسجت بيننا عرى مودة ورضا حتى صرت أشتاق إلى لقائه لما يتمتع به من دماثة خلق وحسن حديث وأنفة وصدق، إضافة إلى ثقافة قلما ينعم بها صفوة معلمي اليوم، غدت تنمّي ثقافتي، وتوسّع معرفتي بما يدور حولنا.

توالت اللقاءات بيننا من خلال عملنا، فحملت في طياتها مواقف أكّدت لي صدق حسي بأن الرجل يتسلح بحكمة وصبر وحسن تصرف، صفات رسختها تربية أسرية صالحة، وصقلتها خبرته في الحياة، وثقافته الواسعة.

من تلك المواقف سلوكه العملي القائم على الجد والاجتهاد والمصابرة والحرص على نقل الخبرة لمحتاجيها من المعلمين، ما أكسبه تقدير أهل الميدان واحترامهم، فمن عادة المسؤولين عن عمل التوجيه تدوير موجهيهم على المدارس كل بضع سنوات بدعوة تبادل الخبرات وتعميمها على الميدان، وشاء الله أن أكلف

الإشـراف على غير مدرسة من مدارسه، فما إن أدخل إحداها، وأتعرف إلى بعض عامليها حتى أفاجأ بغير سؤال عنه، ثم تنهال عقب السؤال الثناءات عليه إقرارًا منهم بدوره وتأثيره الإيجابي، ولاسيما ثقافته الواسعة وحسن تعامله، وقدرته على إيصال ملحوظاته البناءة بطريقة ترضي المعلم فيتقبلها برحابة صدر.

كنت معظم الأيام أعود إلى مقر التوجيه بعد انتهاء زيارتي للمدارس فإذا وجدته نقلت له تحيات معلميه وثناءاتهم عليه فيشكرهم، ثم يفاجئني بنقله لي نفس المشاعر من معلمي المدارس التي كنت أشرف عليها.

انتهى الفصل الأول بمتاعبه وتبعاته لتحل العطلة الانتصافية، ثم يبدأ بعدها الفصل الثاني مرتّبًا على التوجيه مهام كثيرة، وبخاصة على الموجهة الأولى رئيسة العمل المباشر لنا، والتي اضطرت مع بدء الفصل الثاني إلى مغادرة البلاد لترافق مريضًا لها للعلاج، فأوكلت مهامها كلها للزميل -لمن علمني- لكونه أقدمنا خبرة -أزعم- واستحقاقًا.

كانت مهام الزميل في هذه اللحظات كثيرة ومتشعبة، فعليه حضور الاجتماعات مع مدير المنطقة أولًا ثم مراقبي المراحل الثلاث لتدارس العجز في الهيئة التعليمية، وتقديم مشاريع ندب لسد العجز في بعض المدارس لتتحقق العدالة قدر الممكن، إضافة إلى ترؤسه اللقاءات التنويرية التي يُطْلع التوجيه الفني

من خلالها رؤساء الأقسام العلمية على المستجدات التربوية والإدارية لإجراء التعديل على خططهم بما يتناسب مع ما أفرزته نتائج الفصل الأول حتى يعمل معلمو الميدان على تطبيقها. كما عليه الإجابة عن تساؤلات أهل الميدان والقيام بالأعباء الإدارية الأخرى. كان -من علمني- يقوم بهذه المهام كلها بجدارة، وكفاءة، إضافة إلى عبء المدارس التي يشرف عليها، فالرجل يقوم بمهام شخصين اثنين.

لم أره متأففًا قط بل كان حريصًا على إرضاء الجميع ليسير العمل وفق ما خطط له، ومما خطط له اللقاءات التنويرية للمراحل الثلاث، ففي يوم لقاء المرحلة الابتدائية وقع حدث أمام جمع غفير من رؤساء الأقسام والمعلمين والموجهين فجّر حلم الرجل الهادئ الرزين، وكشف لنا أناته وحكمته وحسن تصرفه في معالجة تبعات الحدث، والتي لم تكن في الحسبان، وبخاصة ممن أحسن إليهم، ليبرهن لي - كما يقال- بالصوت والصورة أنه أهل للمسؤولية، وأنه كفاءة تستحق منصبًا قياديًا تربويًا أساسيًا.

ولكي أجلّي على الحدث أرجع إلى اليوم السابق للقاء، حيث دعانا الزميل إلى مكتب الموجهة الأولى للاستشارة، ولوضع محاور اللقاء، تاركًا لنا مهمة توزيع المحاور حتى يعدَّ كل موجه مادته التي سيقدمها غدًا، لكنه اشترط علينا أن نعرضها عليه قبل انتهاء الدوام للاطمئنان.

انصرفنا من غرفة الموجهة الأولى إلى غرفتنا، ثم شرع كل منا يجهز مادته العلمية أو الفنية فإذا فرغ منها عرضها على الزميل لاعتمادها، وليكون لدى الزميل تصور لما سيقوله الموجه الفني منا في اللقاء.

في صبيحة يوم اللقاء حضرنا إلى مكان الاجتماع مبكرين، فأخذ كل منا مكانه، منتظرين اكتمال عقد رؤساء الأقسام. ولما حان وقت اللقاء بدأ من علّمني حديثه مرحِّبًا بالجميع، شاكرًا لهم حضورهم، ناقلًا لهم تحيات الأستاذة الموجهة الأولى وتمنياتها بأن يكون فصلهم الدراسي الحالي حافلًا بالنشاط، محققًا لما نصبو إليه من خدمة للأبناء، وللغة العربية، كما نوّه بأهمية التعاون بين التوجيه الفني وأهل الميدان، وشرع يستعرض أمام الحضور محاور اللقاء، متمنيًا على الزملاء إرجاء المناقشات إلى ما بعد الاستراحة، ولما فرغ من توطئته قدّم أحد الزملاء الموجهين مادته حول المحور الأول من محاور اللقاء..

بدأ الزميل حديثه بالبسملة والصلاة على النبي الأمين، ثم وجّه التحية للجميع وشرع يعرض ما أعده أمامهم على شاشة العرض. تتابع الزملاء في عرض موادهم حتى آخر محور، وبانتهائه انصرف الجميع إلى الاستراحة، على أن يعودوا بعد نصف ساعة ليجيب الموجهون عن أسئلتهم وأسئلة معلميهم في الميدان..

انتهت فترة الاستراحة وتوافد الحضور، فبدأ مَن علّمني مرحِّبًا ثانية بالحضور، وطلب منهم الالتزام بأسس النقاش على أن يبدأ

طرح الأسئلة أقربُ زميل من المنصة يمينًا ثم الذي يليه، وهكذا دواليك. في هذه الأثناء دخل زميلان كانا متأخرين عن بدء الجلسة، فأشار رئيس الجلسة إليهما أن يجلسا ليسمعا ما يطرحه زميلهم المتحدث، فإذا بأحدهما يتكلم بلا إذن، ويرفع صوته، فيجيبه رئيس الجلسة: أستاذ أحمد طلبت مني المغادرة فلك أن تغادر، وعندما أزور مدرستك أنقل لك كل ما يفيدك.

انبرى المتأخر الآخر فجأة قاطعًا كلام زميله، متهجّمًا ومعترضًا بقوله: أنتم في التوجيه تقولون أكثر مما تفعلون، وتطلبون منا ما لا طاقة لنا به، بصوت مرتفع أذهل الجميع، فبدا الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير. كان جل حديثه اتهامات وافتراءات أوقدت في نفسي مرجلًا، لكنني آثرت عدم الحديث لأنني أحدث الموجهين في المنطقة فترة، فهناك من هو أكبر مني سنًا وأكثر خبرة، إلا أن وقع كلامه كان كسياط تضربني.

كم مرة حاول الزميل رئيس الجلسة امتصاص غضبهما، لكن من دون جدوى. كل كلمة ينطق بها أحدهما تزيد من نظرات الحضور المستغربة من كلامهما وبأنهما شطّا كثيرًا وتجاوزا البحث عن المنفعة، لكن الرجل بحكمته حاول التصبُّر حتى لا يفشل اللقاء، فطلب إلى رئيس القسم أحمد المغادرة لقضاء حاجته، ومن الآخر أن يتحدث بهدوء وسيجيبه عن كل تساؤلاته بمجرد أن يصل دوره للحديث. بقي هادئًا ولم تثره الافتراءات حتى فرّغ الزميلان شحنتيهما وغادرا. توجه للزملاء معتذرًا ومتابعًا سماع

السائل كأن شيئًا لم يحدث.

كم كبر مقامه في عيني، فقد أشعرني بأنني محتاج إلى مجالسته أكثر لأتعلم وأكسب من حكمته وقدرته على كظم الغيظ، فغبطته من قلبي على تماسكه وحسن تصرفه ومتابعته للمهمة كأنه لم يسمع أي اتهام، بل بقي يستقبل أسئلة الحضور، وكنا نتبادل الرد عليها حتى آخر سائل. أنهى الاجتماع شاكرًا للكل حضورهم ومتمنيًا أن نتخلق بخلق المربي الذي نذر نفسه ليخدم الآخرين..

غادر المعلمون ثم عرجنا نحن -الموجهين- على إدارة المدرسة لنشكرها على استضافتنا، وعدنا إلى التوجيه. شكرت له صنيعه وسعة صدره. شكرني ولم ينطق ببنت شفة عما جرى مطلقًا. كان هذا الاجتماع برأيي من أنجح الاجتماعات؛ لأنه تطبيق عملي على كظم الغيظ وحسن التصرف والتحكم بالمشاعر.

هذا الحدث وقع قبل اثنتي عشرة سنة، والذي علق منه بالذاكرة قليل، فأحببت أن يسعفني من علّمني حتى أتذكر بعضًا مما جرى، فوجهت إليه رسالة، فكان جوابه بالحرف:

(أخي العزيز، تحية طيبة وبعد؛ فأرجو أن تكون مع الأسرة الكريمة على ما نتمناه لكم من الصحة وهدوء البال والتوفيق في مساعيكم.. فأنت أعرف الناس بي، فقلبي لا يعرف الحقد، ولا يبقي في ثناياه ما يعكر الخاطر، فانشغالي بالهموم الكبرى لا تترك حيزًا في نفسي لاستذكار أخطاء الآخرين، وكل ابن آدم خطاء..

ولكنني أذكر هذا الموقف لأنه عُدّ من الشواهد على ضعف تجربة الأخوين واستكبارهما وعدم تحرّيهما النصفة مع الآخرين، لكنني كما أذكر بردت ما في قلبيهما من سعير (الأنا) والطيرة، وكنت يومها أنوب عن الموجهة الأولى، وكنت أرد على مداخلة من أحد الزملاء أو الزميلات فيما يخص أسلوبًا جديدًا في الأداء وعليه تساؤلات جمة، إذ لم يكن قد استقر في الأذهان بعد؛ فاحتج رئيس القسم -رحمه الله- بأسلوب فظّ، وكانت مدرسته بإشرافي، وأنا أعلم مرضه، فطلبت إليه أن يغادر اللقاء حرصًا على صحته من الانفعال، ووعدته بتبيان الأمر له حينما أزوره فخرج محتجًا. وأذكر أنه استسمح مني حينما زرته معتذرًا بأدب، ولم يطُل الوقت حتى توفاه الله.

أما الشخص الآخر فأراد أن يستعرض أمام الحضور وراح يهرف محاولًا استفزازي، وحينما أخفق في ذلك طلب الاستئذان بالخروج من اللقاء فأذنت له، فخرج ثم عاود إليَّ الاعتذار مرات كثيرة، وبخاصة عندما سمحت له الظروف بأن يصبح موجهًا ويأتي ليعمل معنا. هذا ما أذكره وقد حثثت الذاكرة المتعبة والمشغولة بهمومنا الكبرى كما تعلم، فرج الله كربتنا الوطنية).

هذه رسالة من علمني، أردت أن أعرضها لأننا نواجه مواقف شبيهة في رحلتنا الحياتية، فلنصبر ونتصبر ولا نتعجل، ولنعمل بما أوصى به رسول الله ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) متفق عليه.

فعلينا بالصبر ثم الصبر حتى لا نستجر إلى ما لا تحمد عقباه..

جزاك الله خيرًا يا من تعلمت منه الكثير، فحبه زاد في قلبي، وكم تمنيت أن نبقى قريبين لأنهل من علمه وحكمته.. لكن بقاء الحال من المحال.

غادرَنا مَن علمني وترك فراغًا يصعب أن يملأه غيره، فالله أسأل أن يكتب له التوفيق والسداد، ومع ذلك بقي تواصلنا، ولله الحمد،فالأيام مهما قويت حبكتها وتصريفها لن تتمكن من نزع حبه من قلبي، وأظنه...

* * *

الحكاية الثالثة

الحكيم واللص

يحكى أن حكيمًا تقدّمتْ به السن، يعيش وحيدًا في منزل متطرف عن منازل قريته التي تسوِّرها بقع خضراء تكوّنت من دون تدخُّل البشر، فكانت بتنوّعها آية جمال بديع استهوت أهل القرية، وبخاصة في الربيع وأوائل الصيف،إذ غدت ملجأهم للفسحة والتنزّه والتخفيف عن أنفسهم، والتأمل في إبداع الخالق.

على مقربة من القرية ينتصب جبل ضخم يتطاول نحو الأفق، أحبّ أهل القرية، فرغب في خدمتهم مدفوعًا بواجب الجيرة وحسن العشرة، فأرسل إلى القرية المياه التي تتساقط عليه في بضعة جداول لتستقر في بركتها، والتي فتحت صدرها لاستقباله بعد رحلته عبر الصخور. فإذا ما حط عصا ترحاله واستقر في البركة استغله أهل القرية في حاجاتهم، فسقوا منه حيواناتهم وأشجارهم، ورووا مزروعاتهم في حواكيرهم المتناثرة لتبقى نابضة بالحياة، تُجمِّل ما حولها، وتمدّ أهل المكان ببعض مطالب الحياة بما تسديه من خيرات الله الكثيرة.

هذه القرية حباها الله بنعم كثيرة؛ ومن تلك النعم رجل حكيم

عدّه أهل القرية ذروة النِّعَم لما يتمتع به من حكمة وصبر، وبُعد نظر، وإسداء نصح وإرشاد، وإصلاح ذات البين، فبحكمته وأناته ودماثة خلقه ومساواته بين الجميع داوى جراحهم، وحل خلافاتهم، وخفف من نزاعاتهم، وبدد حيرتهم، وأقال عثرتهم، وذكّرهم بدينهم القويم كلما أخذتهم دنياهم بعيدًا.

كان همّ الحكيم الأوحد أن يرضي الله، وأن يقدّم العون لمحتاجيه؛ لذلك جاء عمله متفردًا، مبعثُه قلب جامع رقيق، وخلقٌ حسَنٌ قويم، وحكمة أنضجها الزمن والتجربة، وثقة بالنفس صدقت مع الأيام. هذه الخصال الحميدة أكسبته مودة القريب والبعيد حتى وصل خبره بعيدًا، فقصده الكثيرون، طالبين نصحه ومشورته وإرشاده، بل رجاه بعضهم أن يتدخل لدى خصومهم لإصلاح ذات بينهم..

حكاية الحكيم وأفعاله، وسيرته الطيبة سمع بها شاب في العقد الثالث من العمر امتهن السرقة منذ طفولته وجعلها وسيلته للكسب، فقال في نفسه: رجل بهذا المستوى من التأثير فيما حوله، كبير في السن، يأتيه الناس من أماكن كثيرة للاستشارة، والنصح.. بالتأكيد لديه ثروة كبيرة! فيا ترى ما هو فاعل بها ما دام يعيش وحيدًا؟ أظن.. أنه يكنزها في بيته. سكت قليلًا وأضاف: ألست أحقَّ بها منه؟ فأنا شاب في مقتبل العمر، بينما هو شيخ فان يعيش أيامه الأخيرة، فلمن سيترك هذه الثروة؟ لم لا أفكر بطريقة تمكنني من الثروة؟ جلس اللص يقلّب الأمور، ويرسم الخطط التي تمكّنه من الثروة..

وبعد تفكير طويل تفتّق ذهنه عن خطة تبدأ أولًا بالذهاب إلى قرية الحكيم ثم التظاهر بطلب النصح والمشورة عله يعرف جزءًا من حياة الحكيم اليومية ليرتب عليها خطواته الأخرى حتى يستولي على المال.. تبسّم غير مرة، والأمل يحدوه أن يحصل على الثروة التي ستغيّر حياته مستقبلًا، بل امتد تفكيره أبعد من ذلك، فقال: منذ هذه اللحظة سأعاهد ربي إن نجحت خطتي وحصلت على الثروة أن أتوب توبة نصوحًا ثم أبدأ حياة جديدة مختلفة تمامًا عما مضى، فثرائي سيجنّبني أخذ أموال الناس بالباطل، وبالتالي سأغيّر نهج حياتي لأكون رجلًا صالحًا، وإن فكّرت وقتذاك في تأسيس أسرة، وتقدّمت إلى خطبة فتاة فلن يتردد أهلها بالموافقة عليّ؛ لأن سلوكي والتزامي الديني يشفعان لي، فضلًا عن ثروتي، فعريس بهذه المواصفات لن يُرفض طلبه أبدًا.

صمت برهة عن حديث نفسه ثم تذكّر فجأةً مَن حوله فقال: هؤلاء سيسألون عن مصدر ثروتي التي ظهرت علي بلا مقدمات فيقولون: من أين جاء هذا اللص المدعي التوبة بالمال؟

سؤال مشروع قد أسمعه من القريب والبعيد، فبم أجيب عنه..؟

نظر بعيدًا مدَّ بصره، ولبث لحظات ولحظات وهو ينظر إلى الأفق البعيد متخيلًا أن يأتيه جواب، ولما طال انتظاره فكّر ثم فكّر.. فاهتدى إلى فكرة أسمعها نفسه بقوله: بمجرد أن أحصل على الثروة

أخفيها عن الأنظار في مكان مكين، وأشيع بين الناس أنني أقلعت عن المعاصي وسلب الناس أموالهم، فألزم الصلوات الخمس في المسجد، وأنهج سلوكًا مغايرًا عماده الصدق في الحديث، والابتعاد عن النميمة والغيبة، والإكثار من ذكر الله واستغفاره، والتشجيع على فعل الخيرات، ومساعدة المحتاجين وما شابه.. ثم أنشر بين معارفي أنني عازم على السفر بحثًا عن عمل شريف يجنبني أكل مال الناس بالباطل، وإلحاق الأذى بهم، ويكسبني في الوقت نفسه مالًا حلالًا. ولأثبت لهم عزمي الجاد، وسلوكي الجديد، أتقدّم لمن أسأت إليهم معتذرًا راجيًا صفحهم عن هفواتي؛ فحياة المرء بيد الله، فلا أدري أأعود إلى القرية أم أقضي نحبي بعيدًا!!

حتى إذا انتشر خبر صلاحي وتوبتي أغادر قريتنا ضاربًا في الأرض باحثًا عن عمل مشروع أكسب به ما يسد حاجاتي، ويضمن استمرار توبتي حتى لا أنكث العهد مع الله. فإذا تأكّدتُ من ثبات توبتي ورسوخها في أعماقي بحيث لا تتزعزع بمغريات المال أرجع إلى قريتي، وأتظاهر بأنني جئت بمال وفير فأبتاع بيتًا أكبر من هذا العش الحقير، ثم أتزوج، وأشتري ماشية بما تبقّى من مال، أرعاها بنفسي فإن تكاثرت وضاق عنها المكان استأجرت لها راعيًا لأتفرغ إلى عمل الخير، والإصلاح بين الناس.

لم يُنْهِ الثريُّ الحالم كلمة الناس حتى ظهر له فجأة شبح يقول:

– ماذا ستفعل لي، أنا صاحب المال؟

– سيدي الحكيم!! رحماك.. رحماك يا الله، لن أنساك أيها

الرجل الطيب، فأنت سرّ ثرائي.

همهم غير مرة، وهز رأسه وتابع:

– حيفٌ كبير علي، وكل الويل إن حصل مني نكران لجميلك سيدي.. هذا لن يحصل ولن أفعله حتى لا يقال عني بلا أصل... إن وجدتك –يا تاج رأسي وشيخي– على قيد الحياة أرجع لك مالك كله، وأتظاهر أمام الناس بأنه صدقة مني أضعها بين يديك حتى تتصرف بها. إن شئت صرفتها على رواد بيتك أو تصدقت بها على المحتاجين أو أعطيتها من تشاء. وإن سبقني إليك الأجل أوزع المال عن روحك على الفقراء. هذا عهد يا سيدي، أقطعه على نفسي وأشهد ربي على ما أقول.

نظر اللص يمينًا وشمالًا فلم يعثر على أثر للشبح من جديد، فكأن شبح الحكيم اكتفى بعهد اللص فغادر.. تنفس الصعداء وتصور بعهده هذا مع الشبح قد وضع النقاط على الحروف، فقال: لم لا أبدأ تنفيذ خطتي فورًا؟ رُبّ لصٍّ آخر يفكر بما أفكر.

غادر اللص قريته في وقت مبكر قاصدًا قرية الحكيم فوصلها ظهرًا. سأل أحد المارة عن بيت الحكيم فأرشده.. توجّه نحو البيت ولما اقترب منه نظر يمينًا وشمالًا فلم ير أحدًا. استغل خلو المكان وبدأ يبحث حول البيت عن وسيلة تساعده على تسلق الحائط، فلمح كمية من التراب المتراكم ترتاح على جزء من أسفل السّور منذ فترة قد أشبعتها أمطار السماء ريًّا فاكتست خضرة. فقال

في نفسه: وجدتها، وجدتها، لو وضعت فوقها بضعة أحجار أو صندوقين من الخشب لتمكنت من الوصول إلى أعلى السور، ثم أنزل إلى صحن الدار.

نظر حوله ثانية ليطمئن من خلو المكان من المارة. أخذ يبحث عن علامات يهتدي بها على الكومة ليلًا، فلحظ قطعتين من الحجر. تفاءل بهما خيرًا، وقال: يبدو أن الأمور تسير وفق ما أهوى. اتجه إلى البوابة. قرع بالحلقة قاعدتها، ثم كرر القرع... فسمع: انتظر، انتظر سآتيك.. لم يطل انتظاره، فإذا بالباب يُفتح ويطل من خلفه رجل تبدو عليه هالة من الوقار والهيبة على الرغم من تقدمه في السن يبش له، ويقول: تفضّل يا بني، يا مرحبًا بك.. أهلًا وسهلًا.. مدّ الحكيم يده مصافحًا ضيفه، وأبقاها بيد الضيف، وسار به إلى صدر الليوان الذي يستقبل فيه مرتاديه.

هذا الفعل باغت اللص ورفع من وتيرة خوفه وهلعه فزادت نبضات قلبه وخشي أن يفتضح أمره، فحاول التماسك مناجيًا قلبه: عرفتك جلمودًا كالصخر، ما الذي أرعبك وجعلك ترتجف؟ أرجوك، أرجوك لا تفضحني، فإني أعدك أن تكون هذه هي الأخيرة التي أرتكب بها إثمًا، بالله عليك اصبر علي قليلًا. مناجاته نفسه، إضافة إلى استقبال الحكيم له وأخذه من يده لصدر الليوان ما أذهب جزءًا من خوفه، فعاد له بعض الاطمئنان ليبوح لاحقًا بمشكلته:

- شيخي الجليل، سمعت عن أفعالك العظيمة، وحكمتك

وبصيرتك النافذة، ونصحك لمن يقصدك الكثير؛ لذلك جئتك شاكيًا ومستشيرًا لتنورني كيف أتصرف تجاه شقيقي الوحيد الذي سلبني حقي من تركة أبي؟

نظر الشيخ إليه مستهجنًا:

- أأخوك سلبك حقك؟!

- نعم يا شيخي، أبي رحمه الله تعالى منذ سنوات زوج أخي، وأسكنه معنا في الدار، فرزق أخي أولادًا ملؤوا علينا الدار حيوية ونشاطًا، وجمّلوا حياتنا بعد أن كانت خاوية. هذا النعيم لم يستمر طويلًا، إذ شاء اللهُ أن يموت الوالد الذي ترك لنا قطعة من الأرض، والدار التي نسكنها. وأخي بعد أشهر من وفاة والدي استولى على الدار، وطردني قائلًا: أنت عزب يمكنك أن تدبر نفسك بسهولة أما أنا فصاحب عيال؛ سآخذ الدار وأعطيك قطعة الأرض تتصرف بها.

كلامه لم أكن أتوقعه أبدًا، والذي زاد الطينة بلة طرده لي على الرغم من حبي لأبنائه ومساعدتي له على شؤون الحياة. فعله آلمني كثيرًا وأثار حفيظتي، فتماسكت ولم أعترض خشية أن يعلم الجيران بخلافنا، بل تركت له الدار، واستأجرت غرفة بسيطة تؤويني، ووضعت الأرض برسم البيع، لكن للأسف لم يسأل أحد عن قيمتها، فخشيت إن عدت إلى الدار أن أختلف معه فيفتضح أمرنا، وارتأيت أن آتيك طالبًا نصحك وإرشادك لأصل إلى حقي وأحتفظ بأخي وأبنائه...

قال الحكيم:

- أحسنت صنعًا يا ولدي، هل تساوي قيمة الأرض قيمة الدار؟

- لا يا سيدي، ولا تساوي حتى ربع قيمة الدار.

- هل شكوت أخاك لأحد من وجهاء بلدتكم؟

- لا، يا شيخي.

- حسنًا فعلت، أقترح عليك أن تذهب إلى القرية، وتكلّف أحد وجهائها بالتدخل لدى أخيك؛ فوجيه قريتكم أخبر مني بوضعكما، وتأثيره على أخيك أوقع من تأثيري، وليحاول الوجيه مساومته على إعادتك إلى الدار إلى أن تباع الأرض. لأن تدخلي من الخارج يا ولدي قد يثير حفيظة أخيك وسخطه عليك، ويعقّد الحل أكثر. اذهب وافعل بما أشرت، وحاول استرضاء أخيك، وقل له بلا عصبية أو تشنج: أخي أنت الباقي لي من أسرتي، فمن لي سواك في هذه الدنيا؟ أنت سندي ومرشدي، فو الله لا أود خسارتك، ولا أن يعلم أحد بخلافنا أكثر ممن عرف.. فإن رفض أخوك عرض الوجيه فقل له: اسمح لي يا أخي إذًا أن أذهب إلى حكيم القرية المجاورة عله يجد لنا حلًا. ثم راقب ردة فعله، فإن بقي مصرًا على موقفه فعد إلي، ولكل حادث حديث. وإن امتثل لمقترح الوجيه فهذا المرجو..

قال اللص:

– شكرًا جزيلًا يا شيخي، سأعمل بمشورتك، لكنني متأكد أن أخي، لن يعطني حقي لاعتقاده أن أبي لما أسكنه في الدار بعد زواجه فضّله عليّ حتى بالميراث..

– يا ولدي لا تستبق الأمور، قد يهديه الله إلى الرشد فيعيد لك حقك أو على الأقل يرضى بسكنك معه في الدار حتى تباع الأرض. يا ولدي، يبدو أن الحديث سرقنا، اعذرني لم أضيّفك بعد. خادمي إجازته اليوم. أدعوك أن تدخل المطبخ وتضيّف نفسك بنفسك...

– مولاي، وشيخي، أشكرك من قلبي، اسمح لي بالانصراف قبل أن يداهمني الليل، وحتى تنال قسطًا من الراحة، فربما سائل يأتيك.

– يا ولدي، لن تغادر بيتي قبل أن تأخذ شيئًا من الطعام حتى تقوى على المسير، فلا مطاعم في قريتنا لتذهب إليها.

اضطر اللص إلى البقاء بعدما أصر عليه الحكيم، فاتجه إلى المطبخ ليعدّ الطعام بنفسه. استغل الفرصة، وشرع خلسة يتفحص الدار يمينًا وشمالًا لعله يعثر على شيء يساعده في النزول من أعلى السور، فلمح في زاوية الدار برميلًا كبيرًا مغطى بقطعة خشبية؛ استبشر خيرًا، وبدأ يخمّن المسافة التي سيقطعها على ظهر السور حتى يصل إلى موازاته، تأمله بنظرة خاطفة ثم دخل إلى المطبخ، فأخرج بعض الأطعمة الجاهزة من (نملية) خزانة حفظ الطعام الفائض، ثم أشعل موقد (بابوركروسين)، سخّن

الطعام وعيناه تمشطان كل مكان تصلان إليه بحثًا عما يخدمه في خطته. حمل الطعام الساخن على صينية كبيرة ومضى إلى الليوان، وضعها أمام الحكيم وشرعا يأكلان، ولما انتهيا من الطعام أعاد اللص الباقي إلى المطبخ، غسل الأطباق وتابع تمحيص كل زاوية أمامه، فرأى بابًا مفتوحًا لإحدى الغرف، نظر إلى داخلها فطالع سرير الحكيم، وفي جهته المقابلة انتصب دولاب كبير غطى معظم الجدار، كما لمح بابًا مغلقًا. كم تمنّى لو كان الباب مفتوحًا ليعرف ما في الغرفة.

عاد إلى الليوان، شكر للحكيم حسن ضيافته، ووعده بأن يطلعه على ما يستجد معه، ثم استأذن، وخرج من الدار ينظر يمنة ويسرة خشية أن يراه أحد، وحين تيقن من خلو الطريق أسرع بعيدًا يبحث عن مكان يسمح له بالتخفي وبرؤية كل من يدخل إلى بيت الحكيم أو يخرج، ولما وجد ضالته ركن فيها، وأخذ يراقب البيت بقية نهاره، إلا أنه لم ير أحدًا دخل البيت، فتذكّر أن أهل القرية قالوا له: إن الشيخ بعد العصر يغلق بابه فلا يستقبل أحدًا من مرتاديه.

كنست الظلمة القادمة كل ضوء في المكان، فصرف اللص الحالم اهتمامه عن المراقبة إلى التفكير بخطة تمكنه من الوصول إلى داخل المنزل، فقرر أن يبقى أطول فترة ممكنة في المكان بعد إطفاء الحكيم للنور في بيته، مصبرًا نفسه على بطء مرور الوقت، ولما توقع استسلام الحكيم للنوم تسلل حتى وصل الدار. هناك أخذ يتلمس الأرض بحثًا عن كومة التراب، وحين وجدها تحسسها بكلتا

يديه حتى وصل إلى الحجارة التي انغمست في أطرافها، عالجها بهدوء يمنة ويسرة حتى نزعها، حملها وبدأ يرصّها فوق الكومة لتمكنه من الوصول إلى الطرف العلوي من السور، حبس أنفاسه خوفًا من انكشاف أمره، وبمجرد أن أنهى رصّ الحجارة تسلّق الجدار حتى اعتلى ظهر السور. أخذ نفسًا عميقًا؛ فما زالت أمامه خطوات هي الأصعب ليصل إلى محاذاة البرميل. زحف ببطء شديد فوق السور على رجليه ويديه حتى وصل إلى موازاة البرميل. أخذ قسطًا من الراحة، ثم أمسك بكلتا يديه حافة السور، وأرخى رجليه حتى تدلتا أرضًا لكنهما لم تلامسا سطح البرميل، فظن باعتماده على يد واحدة سيصل بإحدى رجليه إلى سطح البرميل، فكانت المفاجأة أن خانته يده فلم تقوَ على حمل جسده المتدلي فهوى مرتطمًا بأرض الدار القاسية، محدثًا صوتًا عاليًا وصل إلى الحكيم الذي نهض من فراشه ينظر يمينًا وشمالًا.

حاول اللص النهوض ليهرب، لكنه لم يستطع فالألم الشديد غلبه، إذ إن إحدى رجليه لم تساعده على النهوض فخنس في مكانه. أشعل الحكيم الضوء وخرج إلى صحن الدار فوجد أمامه شخصًا ملقى أرضًا، اقترب منه فعرفه، فقال مستهجنًا:

- أأنت.. ما الذي دفعك إلى هذا؟

زرد اللص ريقه، وحاول التغطية على فعله الشنيع:

- مولاي الحكيم، تأخر علي الوقت في قريتكم حتى دخل الليل

فخشيت السير في الظلام، فقلت أرجع إلى بيت مولاي لأبيت عنده، ولما حاولت النزول إلى الدار لعلمي أنك لا تستقبل أحدًا ليلًا حصل ما حصل.

هز الحكيم رأسه وقال:

- آآآه، أتعتقد أن هذا يبرر فعلك؟

- لا، يا سيدي، لكنني خشيت إن طرقت بابك أن يسمعني أحد المارة فيظن بي الظنون.

أخذ الحكيم يد اللص ليساعده على النهوض فلم يستطع القيام من شدة الألم، فاضطر لأن يجره إلى صدر الليوان، ثم جاءه بوسادة أرقده عليها، وأخذ يتلمس رجله التي تؤلمه. لفها بقطعة قماش، وشرع يرقيه، ثم أوصاه قائلًا:

- عليك بالصبر والتحمل حتى الصباح؛ فبمجرد أن يصل الخادم سأرسله إلى مجبّر القرية ليأتي به، فالصبر الصبر، فلا حول لنا ولا قوة.

أمضى اللص ليلته متألمًا، لم تغمض له عين، لكنه تعجب من سمو خلق الحكيم الرفيع، ومقدار الطيبة التي تسكنه، وروح التسامح التي يتمتّع بها، وقال في نفسه: أيعقل أنه صدقني؟ لا أظن أن رجلًا بهذه الحكمة ينطلي عليه كلامي.. لعن نفسه الدنيئة الخسيسة على ما اقترفته في حقها وحق من أحسن إليه، وتذكّر قول الله: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

في الصباح وصل الخادم، سلم ونظر إلى الليوان فقال: سيدي ألديك ضيف؟ قال الحكيم: نعم يا ولدي، ضع ما في يدك ثم اذهب إلى المجبّر، وائت به. ذهب الخادم إلى بيت المجبر، وأخبره بدعوة الحكيم له. حمل الرجل محفظة عدته، وسار بصحبة الخادم حتى وصلا المنزل. سلم على الحكيم الذي طلب إليه أن يكشف على إصابة الزائر. تفحص المجبر رجل المستلقي ثم طلب بعض الحاجات من الخادم الذي وفرها حالًا. خلط المجبر بعضها ببعض حسب معرفته وجبّر الكسر، ولما همّ بالمغادرة ناداه الحكيم أن يتريث. أقبل عليه لينقده مبلغًا من المال، رفض المجبر أخذ المال بشدة. شكر له الحكيم صنيعه، وطلب من خادمه أن يرافقه، ليختلي باللص فقال:

– يا ولدي سأكلف الخادم أن يستأجر لك عربة تحملك إلى قريتكم.

– سيدي، لا، لا أرجوك أنا أحببتك وأعاهدك أن أتوب على يديك، وأكون خادمًا لك بلا مقابل لأتعلم من خلقك وتقواك.

– ولدي، خادمي الحالي كاف، ولم أعتد الإسراف، فأرجو الله أن يعافيك ويرزقك الحلال، لكن أحب ألّا تظنني ساذجًا ينطلي علي ما بررت به دخولك داري من فوق السور. أنا يا ولدي عملت بهدي سيد المرسلين كي أستر عليك، فكتمت خبرك لوجه الله، محتسبًا

جزاءه، آملًا أن يكون لك درسًا حتى تقلع عن فعل المعصية، ضارعًا لله أن يهديك فتغيّر سلوكك، وتدع الشر الذي يؤدي إلى المهالك. تصوّر لو أنني أخبرت الناس عن فعلك؛ أتدري ما سيكون مصيرك؟ بالتأكيد لن يكون حسنًا. اسمع ماذا قال سيدنا محمد ﷺ بشأن من يستر على أمثالك المخطئين في جزء من حديث طويل: (ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة).. هذا من هدي محمد بن عبدالله ﷺ، حتى الحكماء من البشر أرشدوا إلى التسامح وحببوا به ودعوا إليه؛ اسمع ما قاله أحد الشعراء بشأن التسامح والبعد عن الأذى:

لـــي أن أردّ إســـــاءة بـإســـاءة

لـــو أنـــنـــي أرضـــــى بـــبـــرق خـلـب

عاد الخادم من مرافقة المجبر، فكلفه الحكيم الذهاب إلى القرية ليستأجر عربة تحمل ضيفه إلى قريته، ولما وصلت العربة لم يكتف الحكيم بما فعل بل نقد اللص مبلغًا من المال قائلًا: احتفظ به لنفسك حتى تتدبر أمرك وتعود إليك صحتك. أجهش اللص باكيًا، وخطف كالبرق يد الحكيم، وشرع يقبلها ويشمها وهو يشهق شهقات توحي بالندم والحسرة على فعله، وكرر رجاءه للحكيم بأن يبقيه ليتوب على يديه.

لكن الحكيم أبى وهو يناجي نفسه بقول سيد البرية: (لا يُلدغ

المؤمن من جحر مرتين)، وقال: ولدي، تأكّد إن كنت صادقًا في عزمك على التوبة فستجد العون من الله.

في هذه الأثناء دخل صاحب العربة إلى الليوان، ثم حمل اللص النادم هو والخادم إلى العربة، وانطلق به سريعًا إلى الجهة التي سمّاها له الحكيم.

* * *

الحكاية الرابعة

ذكيٌّ ولكِن..

في عصر يوم صيفي معتدل الحرارة تجمع بضعة أطفال من أسرة ممتدة لا يتجاوز كبيرهم التاسعة من العمر ليلعبوا في ساحة ترابية منبسطة أمام دار الجد، لكن انبساطها محدود فبعد عشرات الأمتار من دار الجد تبدأ الأرض بالانحدار لتشكل واديًا عميقًا، تجاوره من الجانب الآخر هضبة متوسطة الحجم، فردت عضلاتها على جزء من الأرض، ثم انتفضت طامحة بمزيد من العلو على ما حولها من أرض حباها الله بأشجار كثيفة زينّتها، وأحاطت بالهضبة من غير اتجاه كأنها تحرسها؛ ما زاد الهضبة غرورًا؛ فشمخت أكثر على ما حاولها.

هذا التعالي والصلف قابلته الأرض تسامحًا وطيبة وتواضعًا، فنظرت للهضبة مشفقة وقالت: يا ليتك تعرفين الحقيقة بأنك من سرقت جزءًا مني، وتربعت عليه والآن تفردين عضلاتك علينا بل تشمخين، لكنني لن أعاملك بالأسلوب نفسه، بل سأسمح لعدد من أشجاري بأن يعتلين حوافك الأقرب إليّ حتى لا تظهري منفّرة عارية من الجمال والخضرة وسط شبه غابة، لكن الهضبة لم

تتخل عن غرورها وحسدها. فذات يوم استرعى انتباهها كثرة من يأتي إلى الوادي فتحركت فيها مشاعر الحسد والغيرة، فقالت: ما أكثر روادك أيها الوادي على الرغم من دنو منزلتك وواضعتك. أما أنا فقلما يأتيني زائر فما السبب؟ فكرت، وفكرت فلم تصل إلى الإجابة التي تقنعها، فقررت التقرب والتحبب إلى الوادي فربما تصلها عدواه فيزيد زوارها. رمت كبرياءها جانبًا، وزحفت إليه ثم صافحت كتفه القريب علها تضمن وصول العدوى إليها، وأبقت يدها ممدودة كأنها تربت على كتفه، فأفقدته الحركة، وزادته عمقًا.

ومع ذلك بقي الوادي مغريًا للهضبة وغيرها بتزايد رواده على الرغم مما يحصل فيه بعد موسم الأمطار، حيث يغدو مَكبًّا تستقر فيه الأدوات المستهلكة وما شابه من مرميات جيرانه، فإذا ضاق أحدهم ذرعًا بإحدى أدواته فلا ينتظر مجيء سيارة البلدية، بل يودعها الوادي فتتوارى في جنباته، فإذا لامست قاعه غير المستوي اختفت عن الأنظار إلى أن يأتيها جامعو «الرابش» - العاملون على جمع المرميات- الذين ينزلون إلى قاعه بين الفينة والأخرى بحثًا في زواياه عن مخبوءات يحملونها معهم إلى كتف الوادي ليمحصوها ويأخذوا ما يصلح للبيع، ويتركوا ما عداه يفترش المكان مشوهًا منظر المنطقة، ومسيئًا لعين الرائي.

إلا أن أكثر ما يزيد الطين بلّة غياب البلدية عن تنظيف الوادي الذي تحول إلى مرتع مناسب للكلاب الضالة، والقطط السائبة التي تأتيه من أماكن مختلفة لتعيش في جنباته، وتتقوت على

مرمياته، بل تزيد من أذاه حتى يصل إلى الجيران؛ فمناخ المنطقة المحتضنة للوادي معروف بكثرة رياحه صيفًا وشتاء، فكلما هبت الرياح اتجهت إلى منازل جيرانه، حاملة رسالة تذكّرهم بحسن الجيرة، وبضرورة تنظيفه من المرميات حتى تبتعد عنه الهوام، وخلفت وراءها ما آذاه وآذاهم، ولكي تكون رسالته مؤثرة ذات وقع أقوى على النفوس غلّفها بجزء من الروائح الكريهة التي ولدتها الهوام والمرميات، وكررها مرة بعد أخرى، محمّلة بمزيد من الروائح الكريهة حتى يُسرّع في مراجعتهم للبلدية حتى تتدخل، وتخلصهم من الروائح المقززة، ناسين أنهم هم السبب ليصدق عليهم قول: (يداك أوكتا وفوك نفخ).

غير أن البلدية العتيدة لم تلبِّ طلبهم منذ الوهلة الأولى بسبب روتين العمل الوظيفي في أروقتها. في المقابل استمرت رسائل الوادي المؤذية إلى جيرانه؛ما جعلهم يهرعون إلى البلدية ثانية وثالثة حتى ترسل عمالها ليرشوا الوادي بالمبيدات الحشرية، ولينفثوا بعض معطرات الجو فيما حوله، ما يخفف من غلواء روائحه ولو لحين.

معاناة الجيران والوادي تستمر إلى أن يحتضر الصيف، ويزحف الخريف فعندئذ تتغيّر الأوضاع، وتنقلب الصورة رأسًا على عقب. فإذ بالسكون الذي سكن الوادي يستحيل نشاطًا وحركة. فيا سبحان الله! كيف تغيّر الحال مئة وثمانين درجة؟ فها هي البلدية المتقاعسة دبّ فيها النشاط، وزادت حركتها،

وكثر حضورها فلم يعد مقصورًا على سيارتها اليتيمة التي تجوب المكان مرة كل يومين. فأنى نظرت في منطقة الوادي وجدت عمالًا يتحركون بعدما استنهضت البلدية قواها، وشمرت عن ساعديها، وبوفودها زرافات ووحدانًا بعثت ليجمعوا "الرابش" في أكوام ستحمله السيارات إلى مكان بعيد أعد خصيصًا له. تابع عمال البلدية عملهم على قدم وساق، وبنشاط منقطع النظير لحمته وسداه تعاون الكل مع الكل حتى يثمر، ويؤتي أكله بواد نظيف.

تنفس على إثر نظافته جيرانه الصعداء؛ إذ عادت البسمة إلى الثغور، وكشفت عما في الصدور؛ فالوادي النظيف السعيد بما هو فيه بعد أيام معدودات سيستقبل وفود المياه التي تخلفها الأمطار الغزيرة فوق المدينة المجاورة وما يحيط بها من مرتفعات، والتي تتسابق إلى مجارير الصرف الصحي. فإذا عجز الصرف الصحي عن استيعابها لفظها فيما حوله؛ فيسيل فائضها في الساحات هائمًا بحثًا عن مأوى، فلا يجد أنسب من الوادي ليحط ترحاله فيه.

تصوّر معي -يا رعاك الله- لو أن الوادي مازال مملوءًا بالمرميات ثم جاءته وفود المياه، فماذا سيحصل في المنطقة المجاورة له؟ إن تنظيف البلدية للوادي منذ أسابيع، وأخذها للمرميات أسعد الجميع، بما فيهم الوادي نفسه، فقد ناله قسط من السعادة بعدما تذوق طعم النظافة فوجده لذيذًا لا مثيل لها، فتمطّى فرحًا بحاله، وحرك كتفه الحر فشعر بخفة افتقدها من قبل بسبب القيود. فالآن يمكنه أن يتحرك بكل أريحية، يهز كتفه كيفما يشاء ووقتما

يريد، فكأن الشباب قد عاد إليه، وليبرهن على ذلك فبمجرد أن استنجدت به وفود المياه المتدفقة من المدينة فتح لها ذراعيه ليحتضنها بين كتفيه، لكن سقوط الأمطار الممتد، وتدفقها إلى الوادي زاد على قدرة استيعابه، ولم يعد قادرًا على احتضانها، فبدأ يصدها وهي تهاجمه بقوة بل أصرت على اقتحامه متحدية، وخرجت بفعلها عن لباقة الضيف ما أغضبه فهزّ كتفه الحر فأحدث فجوات طرد من خلالها كل من تحداه.

انكفأ الماء المطرود وراءً، وغمر كتف الوادي، ثم توجّه نحو المنازل القريبة حتى لامس جنباتها، داعبها ليقتنص غفلة منها عله يجد منفذًا يسهّل عليه الدخول إلى البيوت، ولما كثرت وفوده المتصارعة أمام المنازل لفتت انتباه سكانها، فأصابهم الهلع من أن تتمكن من دخول منازلهم وتغمر متاعهم، وتدفعهم إلى تركها طلبًا للنجاة بأطفالهم؛ فتداعوا للتشاور، وتعاهدوا على الوقوف في مواجهتها، وأن يضعوا لها حدًا مهما كثر نزف السماء. لم يطل تشاورهم فسرعان ما اتفقوا على حفر خندق أمام أقرب بيت من الوادي.

بدأ السكان الحفر ثم جمّعوا ترابه أفقيًا ليكون حاجزًا أمام الفائض المتمرد.. بعملهم هذا حدّوا من غلواء المياه المتمردة وشقها لعصا الطاعة على الوادي، وضمنوا مستقبلًا أن السماء مهما جادت بماء الحياة، وزادفائضه،وضاق الوادي عن استيعابه فسيقف تعاضد الخندق والحاجز حائلًا من دون تهديده منازلهم.

في مقابل خشية أهل المنطقة من تمرد الماء على الوادي وتهديده منازلهم وتشكيله كابوسًا أفقدهم حلاوة النوم ليلًا لمحوا فيه جانبًا آخر مشرقًا، حيث حمل لهم في طياته خيرًا كثيرًا، فوقوف الماء عند الحاجز وغمره للساحة الترابية لم يدم، وبمجرد أن انقطعت وفود الماء ونزل منسوبه في الساحة بدأ الجفاف يمسح أثره بقعة بعد أخرى حتى جاء على نهايته.

فكانت المفاجأة الجميلة أن الربيع حل مكان الماء المنكفئ، فلمست يده العجيبة كل بقعة غمرتها المياه ووصلها الجفاف لتتحول الساحة بين ليلة وأخرى من مصدر خوف وغمّ إلى شبه روضة تكتسي رداء أخضر امتد من كتف الوادي حتى الخندق، فبدت كحلّة قشيبة جمّلت المكان وشجعت السكان على الخروج إليها ليتخذوها مكانًا للتنزه وللاستجمام، ومصدرًا للحصول على بعض النباتات البرية كالرشاد والخبيز والهندبة وغيرها، وربّ ضارة نافعة.

سبحان الله كيف تغيّرت الأحوال، فما أرعب أهل الحي في الأمس أصبح اليوم مصدر راحة ومتعة وطعام، إلا أن فرحتهم كان عمرها قصيرًا، فالخضرة والجمال يا للحسرة! لم يعمّرا طويلًا في الساحة، فعادت بعد شهرين تقريبًا إلى ساحة ترابية قاحلة كما كانت.. فيها تجمّع الصبية يلعبون (الطميمة) التي تحتاج إلى جهد كبير سواء أكان اللاعب باحثًا عن المتخفي أم كان هو نفسه متخفيًا؛ فاللعبة تقتضي منه متابعة خصمه المتخفي ليكشفه

ثم يلحق به ليلمسه قبل أن يصل إلى نقطة النجاة. فمن يتقن فن التخفي والمراوغة للحيلولة من دون أن يلمسه خصمه تزدد فرص فوزه، وتسجيله لنقاط أكثر.

بدأ الأطفال يلعبون، وعن مكان يواريهم يبحثون، وإلى قاع الوادي يتسابقون، وفي جنباته يختفون، لعلهم على خصمهم يصعبون، لكنهم مياهَ أجسامهم يفقدون، وإلى بيت جدّهم يهرعون حتى يعوضوا ما يفقدون. فإذا دخل أحدهم إلى الدار لمح جده جالسًا بمحاذاة الباب الخارجي ينظر إليهم، بينما صهره يجلس في غرفة الاستقبال جلسة تمكنه من رؤية التلفاز، وصحن الدار معًا.

دخل أذكاهم بل أشقاهم إلى الدار كغيره، ثم أخذ كوبًا من الماء، رشفه ببطء وعيناه تسرحان بين جده أمام الباب وصهر الجد في غرفة الاستقبال، فجاءه هاتف يسأل: ما سبب جلوس الرجلين منفردين؟ فكر مليًّا في الإجابة عن التساؤل، ثم تفتق ذهنه عن فكرة أن يجمعهما معًا لينهي تفردهما فقال: لم لا أراهن أترابي بأنني قادر على جمعهما معًا؟

خرج من الباب كعادته مسرعًا، ولما وصل إلى أترابه ناداهم:

– تعالوا، تعالوا جميعًا، انظروا إلى الباب ماذا ترون أمامه؟

– جدنا يجلس على كرسي.

– أتعرفون أين يجلس عمي؟ يقصد صهر الجد.

– في غرفة الضيوف يطالع التلفاز..

– ما رأيكم أن أجمعهما لكم عند الباب؟

نظر الأطفال إليه مستغربين فقال أحدهم:

– كيف ذلك؟

– اتركوا لي الأمر حتى أجمعهما، لكن بشرط..

– ما شرطك؟

– شرطي إن نجحت خطتي وجمعتهما أصبح زعيمكم تأتمرون بأمري، أتوافقون؟

صاحوا جميعًا: نعم.

تركهم ثم توجه إلى دار الجد مجددًا، وبقي أترابه يتابعون خطواته متلهفين إلى معرفة النتيجة. دخل إلى غرفة الضيوف، سلّم على عمه وقال:

– عمو.. جدي يريدك أن تخرج إليه..

ألقى مأموريته ثم خرج كالسهم. جلّ همه أن يصل إلى مجموعته ليراقب معهم، ما الذي سيحصل. انشغل الصهر لحظات بإطفاء التلفاز، ثم توجه إلى الباب الخارجي:

– السلام عليكم عمو، بمَ تأمر؟

كان الأطفال يراقبون المشهد من بعيد فلما رأوا الصهر يقترب،

ويحادث الجد، صاح الشقي بأعلى صوته: وربّ الكعبة فزت، أنا اليوم زعيمكم.

نظر بعضهم إلى بعض بعيون حيرى كأنها تسأل: ماذا فعل هذا الشقي حتى جمع بينهما؟

نظر الجد إلى صهره وقال:

– يا ولدي لن أستغني عنك، لكن من قال بأنني أريدك؟

– أحمد منذ لحظة جاءني وقال: عمو كلّم جدو.

– اجلس.. اجلس يا ولدي. ثم هز رأسه غير مرة، وقال: لقد فعلها الشقي..

جلس الصهر على مقربة من الجد، وقال:

– حقًا إنه لشقي، لم أشكّ بصدقه.. عمو، هل حصل منه مثل هذا من قبل؟

– كثيرًا جدًّا،ما ترويه أمه عن تصرفاته الغريبة تجعلك تتصور أنه رجل في منتصف العمر..

– هذا ممتاز يا عمو، إنه فأل خير يدل على ذكائه، فما نتائجه الدراسية؟

– هذا العام ترفّع إلى الصف الثالث بمستوى جيد، أيتناسب هذا المستوى مع ما يصدر منه؟

ضحك الرجلان من المشهد، وقال الصهر:

– لقد نجح هذا الشقي بتمريرها عليّ.. سآخذ حذري منه مستقبلًا، كم أتمنى أن يستغل هذا الشقي ذكاءه فيما ينفعه من تحصيل علمي.

تابع الأطفال مشهد الرجلين وهما يجلسان ويتحادثان، فقال الشقي الذكي:

– أنا حسب اتفاقنا أصبحت زعيمكم، فعليكم الالتزام بأوامري منذ اللحظة، سنلعب كرة القدم بقية الوقت، فعليك يا خالد الذهاب إلى البيت لتأتي بالكرة، أما أنت يا علي فاذهب إلى البقال واشتر صفارة لحكم المباراة.

– علي، لا نقود لدي.

– شباب من معه نقود يسلف عليًا؟..

– محمود لدي ليرة واحدة..

– حسنًا، كافية لشراء الصفارة، فأعطها عليًا.

أخذ علي النقود، وذهب إلى البقال لشراء الصفارة.

– أما أنتم يا أصحابي فعليكم إنشاء مرميين للملعب.

انقسم الأطفال إلى قسمين، فتوجه كل اثنين منهم في اتجاه، وشرعا يرصّان الحجارة عموديًا جاعلَين ما بين عمودي الحجارة

مرمى. كان الشقي يراقبهم من وسط الملعب. فلما انتهى الأولان سار إليهما وقاس المسافة بين طرفي المرمى بقدميه، ثم ذهب إلى الآخرين، قاس المسافة فوجدها أصغر بقليل، زادها حتى ساوت السابقة، ثم طلب منهما نقل الحجارة إلى النقطة التي حددها. ولما أنجزا المهمة، قاسها ثانية مطمئنًا. عاد هو والطفلان إلى منتصف الملعب ليجدوا الآخرَين ينتظران. فقال:

- أنا سأحكّم المباراة، وليشكل كل ثلاثة منكم فريقًا.

انضم خالد إلى الطفلين اللذين أنهيا تحديد مرماهما أولًا، في حين انضم علي إلى الطفلين الآخرين. طلب من كل فريق أن يختار حارسًا للمرمى. أما الطفلان الآخران فيمثلان الهجوم والدفاع.

سألهم: من لديه ساعة يعيرها للحكم؟ أجابوا بالنفي. فكر في حل مشكلة التوقيت فتفتق ذهنه عن أن يستخدم ظل الشجرة القريبة منهم كمؤقت. فاصطحب واحدًا من كل فريق إلى الشجرة. هناك طلب من أحدهما أن يقيس ما بين جذع الشجرة ونهاية ظلها ثم يقيس من بعد الظل مسافة بقدرها يخط في نهايتها خطًا طويلًا ثم يقيس بمقدار ربعها ويخط بنهايته خطًا آخر، ثم يقيس مسافة ثالثة بمقدار الأولى ويرسم خطًا طويلًا في نهايتها، معتبرًا قطع الظل للمسافة الأولى زمن الشوط الأول، وقطعه للمسافة الثالثة زمن الشوط الثاني، أما مسافة ما بينهما فهي تمثل فترة الاستراحة بين الشوطين؛ لذلك أوكل إلى الطفل الثاني أن يرص

الحجارة عموديًا فوق كل خط. بعمله هذا حل مشكلة المؤقت.

رجع هو والطفلان إلى منتصف الملعب، وأخبر الآخرين، ثم أمسك بالكرة والصفارة أمام الأطفال. طلب إلى حارسَي المرمى والمدافعين أن يذهبوا إلى أماكنهم، مبقيًا المهاجمين إلى جانبيه. وضع الكرة أرضًا ثم زعق بصفارته معلنًا بدء الشوط الأول. امتد بهم اللعب حتى وصل الظل إلى عمود الحجارة الأول فأطلق صفارة ممتدة منهيًا الشوط الأول. أعطى اللاعبين راحة حتى وصل الظل إلى عمود الحجارة الثاني. ناداهم للبدء بالشوط الثاني، لكنه قبل بدء الشوط حثهم على التركيز أكثر في اللعب حتى يسجلوا أهدافًا كيلا تتكرر نتيجة الشوط الأول، كما طلب إليهم تغيير أماكنهم، ثم زعق بصفارته ليبدأ الشوط الثاني.

بدأ الأطفال اللعب، والتعب ظاهر عليهم لما بذلوه من جهد أفقدهم طاقاتهم، لكن أحدهم تحامل على نفسه، وانطلق بالكرة مسرعًا متفاديًا محاولات المدافع ثم المهاجم ليسدد الكرة على عكس ما توهم حارس المرمى. فسجل الهدف الأول عندئذ تعالت الأصوات فرحًا بالهدف الأول في المباراة. أعاد الحكم الشقي الكرة إلى وسط الملعب وعلى جانبيه المهاجمان، وقبل أن يعلن بدء اللعب ثانية حثهم على تسجيل أهداف أخرى ليحلو اللعب أكثر.

استمر لعبهم حتى وصل ظل الشجرة إلى عمود الحجارة الأخير، عندها أوقف اللعب، وأعلن فوز فريق خالد على فريق

علي. تصافح أفراد الفريقين والتعب قد أخذ منهم، لكنه قبل انصرافهم قال: سأختار لكم غدًا لعبة أخرى. فإن رغب أحدكم في لعبة ما فليعرضها علي حتى نناقشها. وليكن بعلمكم أن القرار النهائي بيدي ما دمت زعيمًا لكم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، أو يأتي أحدكم بحدث ملفت فيه حنكة عندها أسلمه راية الزعامة.. أليس كذلك؟ لم يجب أحد منهم، فقد وقعوا في شركه، مع ذلك يبقى شقيًا ذكيًا، يخطط لما يريد.. كما يحاول أن يُظهِر لهم أنه ديمقراطي يُشركهم معه في اختيار اللعبة التي سيلعبونها محاكيًا العديد ممن يتخذون الديمقراطية طريقة للحكم. وما أكثرهم في زمننا!

فالديمقراطية إن طبقت تطبيقًا حقيقيًا فقد تكون من أفضل طرق حكم الشعوب لما تحمله من حرية؛ لذا كل من يتصدر الحكم شرقًا أو غربًا ينادي بها ما دامت لا تتعارض مع مصلحته، فإن تعارضت رمى في طريقها كل المُعيقات والحجج متسلحًا بأسماء براقة يبرر فيها تخليه عن تطبيقها، كأن يحتج بأنّ تطبيقها في هذه المرحلة سيلحق الضرر بالوطن، فلا بد من إيقاف العمل بها مؤقتًا، وقد يلجأ أحيانًا إلى فرض قانون الطوارئ ليتحكم في رقاب البشر. فالديمقراطية سلاح كثير من قادة اليوم في العالم الثالث يسوّقون بها أنفسهم في خطاباتهم وإعلامهم لتنقاد لهم شعوبهم المغلوبة على أمرها..

أما الشقي الذكي أحمد فسيبقى زعيمًا للأطفال في قادم الأيام بعدما استعذب حلاوة الزعامة، مشترطًا أن يأتي أحدهم بأمر ملفت.

فيا ترى من سيحكم على الحدث إن كان ملفتًا أم لا؟ سؤال كبير..

كثير من شعوب الدول ذات الحكم الشمولي تطرحه سرًا خوف العيون..

* * *

الحكاية الخامسة

المعلمة

في السطور التالية تحدثنا معلمة عن تجربتها الخاصة فتقول:

(منذ عيّنت معلمة في وزارة التربية قبل أربع سنوات حرصت على أن أدرّس كل عام صفًا مختلفًا عن سابقه؛ لأكوّن خبرة متكاملة عن المرحلة الابتدائية. فإن قُدّر لي أن أدرّس الصف الخامس في عامي القادم فسأكمل صفوف المرحلة؛ لذلك قبل نهاية العام الدراسي قصدت رئيسة قسمي، وطلبت إليها أن توكل إليّ تدريس الصف الخامس في العام القادم. بعد أيام من طلبي دعتني رئيسة القسم إلى مكتبها، وأخبرتني بموافقة مديرة المدرسة والموجهة الفنية على طلبي.

فرحت كثيرًا، وشكرت لهن صنيعهن، وطلبت منها أن تزودني بمنهج الصف الخامس للعام القادم، وكتبه، فاعتذرت عن المنهج؛ لأنه لم يصل بعد، لكنها ناولتني ظرفًا، وقالت: في هذا الظرف يا ابنتي ستجدين منهج العام الحالي، وكتب الصف الخامس، ونماذج من الإعدادات والتدريبات السابقة لزميلاتك في المدرسة، ومن مدارس أخرى قد تستفيدين منها، إضافة إلى دليل المعلم.

توجهت مباشرة إلى مكتبي فرحة، وأخرجتُ ما في الظرف، قلّبته بين يدي محتارة بأي محتوياته سأبدأ! فكرت قليلًا، ثم ارتأيت أن من المناسب رسمَ خريطة طريق تبدأ بقراءتي المنهج لأعرف الموضوعات المقررة، والمهارات اللغوية والهجائية للصف الخامس حتى أجدولها في كشف، ثم أربط كل مهارة بالمهارة المؤسسة لها من مصفوفة المهارات التي تدرّب عليها التلاميذ فيما سبق.

ولما أنهيت عملي قرأت الموضوع الأول قراءة متأنية، ثم اطلعت على مناقشاته وما جاء عنه بكلٍّ من دليل المعلم وإعداد الزميلات وتدريباتهن لأحيط به إحاطة تمكنني من رسم خريطة ذهنية للأداء المستقبلي. وحينما أيقنت أنني قادرة على ذلك شرعت أعدّ له إعدادًا كتابيًا كأنني سأدرِّسه غدًا، فوضعت لكل جزئية من الفهم والثروة والسلامة اللغوية والتذوق الفني أمثلة تدريب تناسبها من الموضوع أو شبيهة لها حتى لا أكرر أمثلة المناقشات، وبما يسهّل علي التغيير مستقبلًا إن تغيّر ترتيب الموضوع في خطة المنهج الجديدة. كما جهزت له غير ورقة عمل.

ابتعدت لأيام عن متابعة ما بدأته لأجدد نشاطي. وحين عدت إلى مجالسة الموضوعات الأخرى قرأتها بتمعن لفهم محتوياتها، ثم رجعت إلى القرار رقم واحد لأعرف بداية كل فترة دراسية ونهايتها، وشرعت أوزع موضوعاتها على أيام الفترة، آملة أن يكون التغيير بخطة الصف الخامس الجديدة محدودًا.

وتجنبًا لأي طارئ مستقبلي منحت كل موضوع حصة إضافية، فكان أول ما فكرت به بعد إنهائي قراءة الموضوعات وتوزيعها على الفترتين الدراسيتين أن أرسم خريطة ذهنية لأداء حصتَي قراءة حرة أتمكن خلالهما من إشعار المتعلمات بأهمية المكتبة، ولأغرس في نفوسهن الرغبة ببناء صداقة معها. فسرح خيالي بعيدًا حتى تصورت نفسي أدخل الفصل، وأقول:

السلام عليكنّ بنياتي الحلوات. فأسمعهنّ يجبن: وعليك السلام ورحمة الله (أبلتي).

– بنياتي، سنبدأ اليوم الحصة الأولى من حصص القراءة الحرة في الفصل، لكني أعدكن بدءًا من الحصة الثانية أن نذهب إلى مكتبة المدرسة. فما رأيكن؟

صحْن بهدوء: نعم (أبلتي).

– بنياتي، لدي ورقة عمل، فيها بضعة أسئلة هي محور حوارنا في الحصة. سأوزعها عليكن لتجبن عن أسئلتها.

بدأت التلميذات قراءة أسئلة ورقة العمل التالية للإجابة عنها:

– ماذا تعني كلمة القراءة؟

– لم تقرئين؟

– ما الذي ترغبين في قراءته إذا ذهبت إلى المكتبة؟

– للمكتبة آداب، اذكري أهمها.

انصرفتُ لأخذ الغياب، ولما انتهى الوقت بدأتُ حوارهن:

– من منكن تجيب عن السؤال الأول؟

رغبت غير متعلمة في الإجابة. قرأته إحداهن، ثم أجابت عنه. شكرت لها، وقلت لنستمع إلى إجابة أخرى. كونت منهما إجابة عرضتها على الشاشة أمامهن، حيث قرأتْها إحداهن، ثم انتقلت إلى السؤال الثاني، فالثالث حتى أنهينا الأسئلة في جزء من الحصة. أما باقي الوقت فأحببت أن أستغله بسرد قصة على مسامعهن فقلت:

– من منكن تحب سماع القصص؟

رفعن أصابعهن.

– ما شاء الله! كلكن تحببن سماع القصص. إذًا سأسمعكنّ قصة عن الأسرة اللغوية.

تعجّبن من عنوان القصة وسألت إحداهن: (أبلتي.. أبلتي) هل للغة أسرة كالإنسان؟

– نعم، يا ابنتي، فاللغة مثل أي كائن حي تتكاثر، فإذًا لها أسرة.

– سأسرد لكنّ جزءًا من قصة أسرتنا اللغوية. ما رأيكن؟

سمعتهن يقلن: (نعم أبلتي.. نعم أبلتي).

– أنتن تشجعنني؛ فأرجو منكن أن تصغين جيدًا.

منذ فترة قرأت في كتاب تراثي..

إذ بإحداهن ترفع إصبعها!

– نعم يا ابنتي، ماذا تريدين؟

– (أبلتي) ماذا يعني تراثي؟

شكرت لها أنها سألت ثم وضحت لهن أن التراث: (هو ما ينتقل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب وفنون ونحوها من جيل إلى جيل).

– أعرفتنّ الآن ماذا يعني التراث؟ حبيباتي الجميلات، نشأت أسرتنا اللغوية في بقعة صحراوية جرداء إلا من أشجار النخيل، ماؤها قليل، وأغلب حيواناتها الإبل. صيفها شديد الحرارة، شتاؤها بارد قارص، هواؤها لا يُحتمل جفافُه وبخاصة ليلًا، حرارتها متفاوتة بين الليل والنهار، مدنها معدودة قياسًا بمساحتها الشاسعة، لكن جزءًا من هذه البقعة كان مباركًا من لدن عزيز حكيم، يكتنف بين جنباته واديًا غير ذي زرع حباه الله الكريم وشرّفه بأن جعل فيه أول بيت وُضع للناس.

وقضى أن تهوي إليه القلوب المؤمنة التي عُمّرت بحب الله وحب بيته العتيق؛ كانت رغبة المؤمنين أن يشدوا رحالهم إليه ليطفئوا بعضًا من شوق قلوبهم وحنينها، وليكحّلوا عيونهم برؤيته، وليؤدوا المناسك في أركانه أملًا برصيدٍ ينفعهم يوم الحساب،وليجددوا العهد بأن الله هو معبودهم الأوحد في هذا الكون الفسيح الذي تعددت آلهته المزعومة.

كم مؤمنٍ لبى دعوة الرحمن، وسلك طرقًا عسيرة، معرّضًا نفسه للمخاطر، متحملًا في سبيل الوصول إليه كبدًا ونصبًا لا حدود لهما. هانت عليه نفسه وهو يكابد أهوال السفر و مشقّته -سواء أكان حاجًا أم معتمرًا- بوسائل سفر تقليدية بعدما نذَر روحه لله. فرحلته قد تمتد لأشهر، لكنْ ما إن تطأ ركابه ثرى هذه البقعة الطيبة حتى تتلاشى متاعبه، وينسى مخاطر طريقه مهما عظمت، بل يمنّي نفسه بزيارات أخرى بعدما تذوق روحانية لم يألفها، وراحة نفسية لم يستشعرها في مكان آخر.

في هذه البقعة الشريفة من الأرض منذ قرون عاش أفراد أسرتنا اللغوية متماسكين (الاسم والفعل والحرف)، حيث ربطت بينهم وشائج القربى والجيرة والتجانس، ما ولّد في نفوس من ينطق بها حبًّا وألفة ومودة قلّ نظيرها، فحازت أسرة لغتهم قصب السبق، وجعلها تتفوق على كل أسر اللغات الأخرى، متميّزة بإعجاز استعصى على أصحاب الكلم الذين وقفوا أمامه عاجزين -على الرغم من امتلاكهم زمام الكلمة سواء أكانوا شعراء أم كُتّابًا- عن تصوير اللحمة التي جمعت بين أفراد أسرتهم اللغوية، ما انعكس على المتحدثين بها لأنها وعاء قيمهم التي يعتزون بها، وأعرافهم التي ورثوها عن أجدادهم، واضعين نصب أعينهم أن يورثوها أبناءهم من بعدهم لتبقى مبعث فخر واعتزاز، فتعاضُدُهم وتفانيهم في سبيل لغتهم مكّنهم من بناء إمبراطورية لغوية فاقت غيرها من الإمبراطوريات التي عاشت في زمنهم، ما أهّل أسرتهم

اللغوية لأن تتربع على عرش الزعامة ردحًا من الزمن.

فكل من حولها يطلب رضاها ويحاول أن يقلدها ويسلك مسلكها، لكن الحسد لن يبقى خاملًا بل تحرك في قلوب ناطقي اللغات الأخرى حتى أثار البغضاء والكراهية والضغينة، فطمس على أبصارهم وبصائرهم، وشرعوا يكيدون لها فتكاتفوا وتعاضدوا ضد أتباع أسرتنا اللغوية؛ فعملوا بكل ما أوتوا من قوة لإبعادها عن الصدارة، حيث اجتمع أشرارهم، ومكروا مكرًا تزول منه الجبال، لكن ناطقي أسرتنا العربية زادوا اهتمامهم بلغتهم وتماسكوا أكثر حتى أفشلوا خطط أعدائهم الذين لم يستسلموا بل غيّروا خططهم وارتأوا أن نجاحهم يبدأ من تفكيك مكامن القوة لدى ناطقي الأسرة من الداخل. فبثُّوا سمومهم، ونصبوا شِراكهم، ودبَّروا من دون كلل أو ملل، حتى يصلوا إلى هدفهم، فتواروا عن الأنظار، وتركوا لجزء ممن ينطق بأفراد أسرتنا اللغوية أن يشكك بقدرتها على مواكبة العصر، مستخدمًا أسماء برّاقة كالتحديث والتطوير وما شابه..

إلا أن مكرهم الجديد صدَّه المخلصون المدافعون عن اللغة، وفنَّدوا كل افتراءاته، فبقيت اللغة متماسكة عالية الجبين. فلا تظننَّ أنهم عزفوا عن غيهم يا بنياتي، فهاهم يخططون ويستغلون كل ثغرة حتى يحققوا هدفهم. فعليكن بُنياتي دور مهمّ في الدفاع عن أسرتنا اللغوية، أتعرفن ما دوركن؟ بنياتي، دوركن يبدأ أولًا بمعرفتكن مفهوم كل فرد من أفراد أسرتنا اللغوية الثلاثة.

فلنستمع لكل فرد منها وهو يعرّف لنا بنفسه:

أنا الاسم أعرّف بنفسي أنني (لفظ دال على معنى في نفسه غير مقترن بزمن. وأدلّ على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، مثال: "محمد" كلمة تدل على الإنسان. "غزال" تدل على حيوان. "شجرة" تدل على نبات. "جدار" تدل على جماد. "شرف" أو "كرَم" أو "نجاح" كلمات تدل على معانٍ، لكنها غير مرتبطة بزمن. وأنا أقبل أن يدخل عليّ كل من: الـ، أو التنوين، أو حرف النداء (يا) وحرف الجر مثال: الشجرة، الجدار، غزالًا، يا محمد).

وأنا الفعل أعرف بنفسي أنني (لفظ دال على معنى في نفسه مقترن بزمن مثل: قرأ ويقرأ واقرأ، وعلامتي أنني أقبل أن يدخل عليّ كل من: قد أو السين أو سوف أو تاء التأنيث الساكنة أو ضمير الفاعل أو نون التوكيد، فنقول قد جاء، قد يجيء، سنذهب، سوف نذهب، قمت، ليكتبن، اكتبن. فكلمة (قرأ) تدل على القراءة لكنها مرتبطة بالزمن الماضي. لو قلنا يقرأ لدلت على القراءة في المستقبل. أما قولنا: اقرأ فتدل على القراءة في الوقت الحاضر).

وأنا الحرف أعرّف بنفسي أنني (لفظ دال على معنى في غيره، فلا معنى منفردًا لي، بل أكتسب المعنى بدخولي على غيري، مثال: إن كنت لامًا مفردة فلا معنى لي، فإن دخلت على كلمة أخرى صار لي معنى ومهمة مثال: الكتاب لي، فدللت هنا على المُلكية، وهكذا)..

بنياتي، أفراد أسرتنا اللغوية عرّفنا كل فرد بمفهومه. لكنه ذو أتباع -أي كلمات- كثر يصعب حصرها، نسمي كل كلمة (لفظًا)

فإن تآلفت الكلمات -الألفاظ- شكلت جملًا لها معان لا تؤديها أي كلمة من كلماتها مفردة.

أعرفتنّ الآن أن للغة أسرة؟

حبيباتي الحلوات، الوقت لا يسمح لي بأكثر، لكنني أعدكنّ بقصص أخرى في الحصص التالية، فالمطلوب من كل واحدة منكن أن تحضر في الحصة القادمة دفترًا صغيرًا ترسم في صفحته الأخيرة جدولًا له ستة حقول نسمّيها فيما بعد، وأن تكتب على الغلاف: اسم المدرسة، والصف والفصل، واسمها، وتكتب بخط عريض أعلى الغلاف (دفتر القراءة الحرة).

ودعتهنّ على أمل العودة غدًا، ثم شرعتُ أفكر بخطوات أداء الحصة الثانية، واضعة غير تصور، حتى تخيلت نفسي ثانية أقرع باب الفصل ثم أدخل وأقول:

- السلام عليكن بنياتي، كيف أحوالكن اليوم؟

وقفن احترامًا لي، فقلت لهن تفضلن. استقر الفصل. تأكدت من إحضارهن الدفتر الصغير ورسمهن الجدول، وشرعتُ أملي عليهن تسمية الحقول الستة:

١- اليوم والتاريخ.

٢- اسم القصة.

٣- عنوان الموضوع إن وجد.

٤- أرقام الصفحات المقروءة.

٥- تاريخ المتابعة.

٦- ملحوظات المعلمة.

بنياتي، قبل ذهابنا للمكتبة سأوزعكن على مجموعات، فكل مجموعة منكن ستختار رئيستها ثم اسمًا للمجموعة.

اختارت طالبات كل مجموعة رئيسة لها، واسمًا، ثم طلبتُ من رئيسة كل مجموعة أن تذكر أسماء مجموعتها على مسمع الأخريات. ولما انتهين اصطحبتهن إلى المكتبة، حيث جلست كل مجموعة منهن حول طاولة مستديرة عليها ست نسخ من إحدى القصص التي اخترتُها مادة للتدريب على القراءة الحرة.

دعوت رئيسات المجموعات إليّ، وسلّمت كل واحدة شفيفة وقلمًا وورقة عمل، وأرقام الصفحات التي سيقرأنها من القصة ليتمكّنّ من الإجابة عن أسئلة ورقة العمل، كما طلبت من رئيسة المجموعة كتابة إجاباتهن عن الأسئلة التالية على الشفيفة:

١- في ضوء قراءتك املئي الفراغات الآتية:

• اسم القصة: .....

رقم الصفحات المقروءة: .....

• أبرز الشخصيات التي وردت فيما قرأت: .....

.....

• ما الذي أعجبك من المقروء؟ .....

.....

• العبرة التي استخلصتها مما قرأت: .....

.....

• ضعي عنوانًا مناسبًا للمقروء: .....

.....

• اختاري كلمة، واكتبيها، ثم مرادفها، وضدها في الفراغات:

الكلمة: ..... مرادفها: .....

ضدها: .....

• كلمة ألفها لينة: .....

أخرى ألفها طويلة: .....

• جملة اسمية: .....

اسمها: ..... خبرها: .....

• جملة فعلية: .....

فعلها: ..... فاعلها: .....

منحتهن وقتًا كافيًا ليجبن عن الأسئلة، ثم أخذت الغياب. شرعت أطوف بين المجموعات لأجيب عن أسئلتهن، فإن كان السؤال مفيدًا طلبت من التلميذة أن تطرحه بصوت مسموع

ليسمعن إجابته. ولما انتهى الوقت دققت على الطاولة وقلت: ضعن الأقلام، ولنبدأ النقاش.

بدأت رئيسة المجموعة الأولى تعرض إجابات مجموعتها عن الأسئلة الخمسة الأولى عبر جهاز العرض العلوي. وهكذا دواليك بقية المجموعات فاسحة المجال للنقاش، ومكتفية بإجابة واحدة عن بقية الأسئلة لضيق الوقت. كما طلبت منهن إلصاق ورقة العمل في الدفتر. أخيرًا جمعت الدفاتر.

غادرت التلميذات المكتبة، أما أنا فأخذت الدفاتر لمتابعتها، وفي ذهني أن أخطط للحصة الثالثة التي ستكون أسئلتها مغايرة بحيث تعزز المهارات التي سأدرّب عليها في حصص التناول الأخرى. فكانت أولى خطواتي للحصة الثالثة تحديد الصفحات التي سيقرأنها في ضوء حجم كل قصة حتى تتمكّنَ كل مجموعة من قراءة قصتها قراءة فهم تعينهنّ على أن يفدن زميلاتهن من قصتهن، وهن يجبن عن أسئلة ورقة العمل التي تعزز المهارات المستهدفة في التدريب كالفهم، والسلامة اللغوية، والرسم الهجائي، ليكون ناتج الفصل الأول للقراءة الحرة الإحاطة بالخطوط العريضة لبعض القصص التي وضعتها بين أيديهن، آملة الفائدة.

* * *

الحكاية السادسة

الطفلة المعلِّمة

طفلة صغيرة في السادسة من عمرها، يناديها أهلها دلعًا (ميمي) رقيقة كرقة الحرير، شفافة كالزجاج المصقول، جميلة كزهرة تفتحت توًا، فانتشر عبقها فيما حولها عبر الأثير، مرحة تجذب من حولها ببساطتها وبراءتها فيما تقوله، وإن كان يظهرها حديثها أكبر من سنها كما هو جسمها، لله الحمد. لا تكاد ابتسامتها تفارق شفتيها، تظن من يحادثها، وإن كان أكبر منها سنًا، صديقها، فلا تناديه إلا باسمه ما عدا جدها وجدتها.

كم مرة ناقشت خالتها التي تكبرها ثلاثين عامًا بندية، تخاطبها باسمها، وقد ترفع صوتها، وتردّ عليها الحجة بالحجة. فإذا استشعرت أنها ضعيفة الحجة أسرعت إلى جدتها لعلها تسندها أو تجد لديها حجة تدعّم بها رأيها شبه المهزوم. فإن تعذر احمرّ وجهها، وحبست دمعتها، وخنقت رغبتها في البكاء متصبرة، وخنست في مكانها بعض الوقت حتى تقتنص فرصة تعيد إليها اعتبارها، فلا تتقبل الهزيمة بسهولة بل تبقى حاضرة في ذهنها وإن نسيها الآخرون.

ملأت ميمي الدلوعة البيت بحركاتها وتصرفاتها حيوية

ونشاطًا، لكنها تحجر حيويتها ونشاطها على غير ذويها وإن شاهدتهم من قبل أو حادثتهم في بيت جدها أو بيت والدها. فإن سلّم عليها شخص منهم أو حدثها انصرفت عنه مع أنها شاهدته من قبل. كم مرة كانت برفقة أمها تقفان بانتظار المصعد فيمر أحد الجيران ممن سبق أن زارهم في منزلهم أو منزل جدها فيلقي عليهما السلام، ويحاول أن يداعبها فلا ترد عليه سلامه، ولا تجاريه في الحديث بل تهرب حتى تتوارى في جانب أمها حتى لا يراها، فإن حصل الموقف في المنزل هربت إلى غرفتها.

هذه التصرفات أرّقت والديها كثيرًا، فهما كمن وُضع سكين في فمه، فلا هو قادر على بلعها أو لفظها خشية تبعاتها المستقبلية. فإن هما ضغطا عليها أو تركاها فكلا الأمرين مرّ؛ لذلك كان اللجوء إلى جدتها فهي الأقرب لميمي يرجوانها أن تخرجها من هذه المواقف غير المرغوبة.

قبل عامين أدخلها أبواها روضة تابعة لمدرسة أجنبية مكّنتها من إتقان بعض من مفردات اللغة الإنجليزية، فغدت تحادث أبويها بما امتلكته من لغة، ظانّة أن من حولها جميعهم يتحدثون الإنجليزية. فمن المواقف الطريفة بهذا الشأن ما كان يحصل بينها وبين جدها، فإذا عاد بها من الروضة وهما في طريقهما إلى البيت تشرع تحدثه بالإنجليزية، فإن استوجب بعض الحديث ردًا، ولم يجبها عنه؛ لجهله باللغة الإنجليزية تعيد على مسامعه العبارة متخيلة أنه لم يسمعها فيحرج أمامها ويضطر لأن يقول: ميمي

حبيبتي، أنا لا أعرف التحدث بالإنجليزية؛ عندها تتطوع وتترجم له العبارة إلى العربية ليجيبها..

مضى عاما الروضة على ميمي سريعين. كوّنت خلالهما كثيرًا من الصداقات مع زميلاتها وزملائها، كما حفظت أسماء العديد منهم، وكانت تقلّد بعض تصرفاتهم، وتروي قصصهم. فكلما رجعت إلى المنزل أعادت أحداث يومها الروضوي على مسامع ذويها، ساندة كل فعل إلى صاحبه، بل محاولة أن تحاكي صوته وحركته، حتى ردة فعل الأبلة مع التلاميذ المشاكسين. فتحاكي معلمتها بطريقة عجيبة تنقلك لتعيش معها المشهد من شدة إتقانها له ونقله بحذافيره، كأي ممثلة محترفة في مشهد تمثيلي أمام جمهور عريض..

في العطلة الصيفية بحث لها والداها عن مدرسة عربية تكون أقساطها السنوية أقل من الأجنبية، فلما عرفت صنيعهما حزنت حزنًا شديدًا، وأخذت ترجو أمها ألا تغيّر لها مدرستها (الروضة) حتى لا تفقد أصحابها الذين تحبهم كثيرًا. حاولت أمها إقناعها بأن أصدقاءها تخرجوا من الروضة ولن يعودوا إليها ثانية، بل سيذهبون إلى مدارس أخرى، فيأتي ردها: دعيني أذهب معهم. وتشرع تعدد أسماءهم، وتقول: أنا أحب أن ألعب معهم في الفسحة، وتبدأ تنتحب حتى تكاد جدتها تشاركها البكاء. فتتدخل وتطلب من ابنتها أن تسجلها بمدرسة ابتدائية تابعة لنفس إدارة الروضة فقد تلاقي بعضًا منهم. تكفكف ميمي دموعها بيديها وتركض إلى جدتها

وتحضنها فرحة وتقول: يعني بدي أشوف فلان وفلانة! ويتغير وجهها مستبشرة كمن عثر على شيء ثمين افتقده.

أمها تحرج أمام جدتها، فلا تود أن ترفض كلام الجدة بحضور الطفلة، ولا تستطيع أن تعدها ثم لا تعمل بما وعدت؛ لذلك تتوجه إلى ابنتها والبسمة المصطنعة على ثغرها علها تخفف من إصرارها قائلة:

– حبيبتي ميمي، أصدقاؤك في الروضة تخرجوا جميعًا آخر العام الماضي. ألا تذكرين الحفل الذي أقامته لكم الروضة في آخر العام على المسرح؟ أعدك يا ميمي الحلوة بمجرد أن نصل إلى المنزل أن أشغّل لك فيديو التخرج حتى تشاهدي أصحابك، وكم الفرحة المرسومة على وجوهكم وردة فعل الأهالي بكم وأنتم تأخذون شهادات التخرج من الروضة. ألا تعرفين يا ميمي الحلوة ماذا يعني أن يحتفلوا بتخرجكم؟ يعني يا ابنتي أن أحدًا منكم لن يعود إلى الروضة ثانية؛ فأنتم ستذهبون إلى مدارس تسمى بالمدارس (الابتدائية).

– ماما، ربي يسعدك، خليني أذهب مع أصحابي إلى مدارسهم الابتدائية؛ فأنا أحب فلانًا، وفلانة، و(الأبلة.).. وتبدأ بذكر الأسماء.

كل توسلاتها لم تغير شيئًا؛ فنفقات المدرسة الابتدائية التابعة لها إدارة الروضة مكلفة للغاية لا تتناسب ودخل الأسرة المادي؛ ما دفع أم ميمي إلى البحث عن مدرسة عربية تكاليفها أقل حتى

تسجل ابنتها في المرحلة الابتدائية.. بعد جهد مضنٍ ومتواصل استطاعت الوصول إلى مدرسة أنموذجية تعد وسطًا بين المدارس الموجودة في المنطقة، أسعارها مناسبة.. سجلت ميمي فيها منتظرة بدء العام الجديد.

لم يطل الانتظار ليحل العام الدراسي وتفتح المدارس أبوابها لاستقبال التلاميذ. ففي اليوم الأول اصطحبت الأم ميمي إلى المدرسة، فلما وصلتها وجدتها بدءًا من الباب مختلفة بالكلية عن روضتها. فأخذت تبكي بحرقة، وترجو أمها أن تعيدها إلى البيت. حاولت الأم إقناعها بالدخول، لكنها رفضت وأخذت تنتحب أكثر، ما اضطر الأم إلى دخول الفصل، والجلوس معها حتى هدأت.

أكملت ميمي دوام يومها الأول بصعوبة ومعاناة. ولما عادت إلى بيت جدها فبمجرد أن دخلت الصالون انطلقت كالصاروخ إلى جدتها -صدرها الحنون- ترجوها أن تتدخل لدى أمها لترجعها إلى روضتها. بقيت فترة تلح بشدة على والديها لإرجاعها إلى الروضة، وهما يحاولان إقناعها بأن أصدقاءها وصديقاتها ذهبوا إلى مدارس أخرى ولن تجد أحدًا منهم في الروضة، ولكي تؤكد لها أمها صدقها أخذتها إلى الروضة، وأدخلتها إلى غرفة انصراف التلاميذ، وطلبت من المشرفة أن تحدثها عن زملائها وزميلاتها. فقالت المشرفة:

- حبيبتي ميمي، أصدقاؤك ذهبوا إلى مدارس أكبر، فالروضة

هنا مخصصة للصغار، أما أنت يا حلوة فصرت صبية الحين ولازم تروحين مثلهم إلى مدرسة كبيرة. بعد لحظات سيخرج الأطفال فلن تجدي بينهم أحدًا ممن كانوا معك في صف روضة ؟.

انتظرت الأم حتى بدأ انصراف الأطفال، فأخذت ميمي تتفحص الوجوه علها تعرف أحدًا منهم، لكن من جدوى. شكرت الأم للمشرفة موقفها، وعادت بميمي إلى المنزل. وبتوالي الأيام نسيت ميمي الروضة وذكرياتها فيها، وبنت في مدرستها الجديدة صداقات أخرى، كما نمّت هوايتها في التقليد أكثر من ذي قبل. فمن فصول التقليد الذي أحبته ومارسته في سنتها الأولى في مدرستها الجديدة أنها إذا عادت إلى المنزل دخلت مباشرة إلى غرفة جدها. أخذت من فوق مكتبه مسطرة ألمنيوم ثم وقفت أمام مرآة الدولاب، وبيدها المسطرة، وشرعت تعيد خطوات درس العربية كما سمعته من معلمة الفصل بصوت مرتفع.

فإذا صرخت على التلميذات وصل صوتها إلى الغرفة المجاورة، وبخاصة عندما تنادي التلميذة باسمها، متخيلة أن الفصل أمامها مملوء بالتلميذات وهي معلمتهم فتبدأ درسها بقولها: السلام عليكن يا حلوات، كيف حالكن اليوم؟ انتبهن يا مجتهدات، سأقرأ لكن الدرس كلمة كلمة. انظرن إلى حركة المسطرة وهي تنتقل من كلمة إلى أخرى، وأنا أنطقها. سكوت، سكوت، سأبدأ: تقرأ (أنا فرح أرسم حوض سمك) تعيده ثانية، ثم تطلب من إحداهن أن تقرأه على مسامع زميلاتها فإن أجادت صاحت بصوت عال: أحسنت،

شجعنها جيدًا. وتنتقل إلى أخرى وهي تنظر إليهن من أمام المرآة.

هذا المشهد يتكرر في أكثر الأيام حينما ترجع من المدرسة. ذات يوم سمعها جدها في درس الحساب تظهر عصبية غير اعتيادية، فأشفق عليها، فصوتها مرتفع أكثر من أي درس سابق، ما يوحي أن صوت معلمة الحساب مرتفع، وربما تكون ممن يغضبن بسرعة، فتسمعها تزعق على طفلة تكرر خطؤها بجمع رقمين، فتقول: قفي، قفي.. ثم تطلب من أخرى أن تجمع الرقمين، فإن وفقت عادت إلى الأولى، وطلبت منها جمعهما، وتبقى تعالجها حتى توفق إلى الحل. يا له من موقف تربوي سليم مرغوب! لكن العصبية المفرطة تعيب المربي، فالأطفال يحاكونه في فعله خطوة فخطوة؛ لأنه قدوتهم.

ميمي المقلدة لم يقتصر تقليدها على المعلمات وهن يدرسن بل امتد تقليدها إلى خارج المدرسة، فإن شاهدت ما يلفت نظرها حاولت تقليده أمام والدتها وجدتها. فتأخذان بالضحك من أدائها التقليدي، وقد تشجعانها وتنقلان ما تقوم به إلى جدها. وقد تذهب الجدة إلى أبعد من ذلك فتطلب إليها أن تعيد المشهد لجدها فتخجل وتهرب إلى الغرفة.

هذه المشاهد المتكررة من الطفلة توحي بأنها تهوى التمثيل. فقد لاحظ الجد حفيدته يومًا تدخل إلى غرفته ثم تمارس هوايتها المفضلة، فيتحدث عن المشهد بقوله: سمعتها تخاطب إحدى الطفلات قائلة: حصة، اجلسي في مكانك لن أسمح لك ثانية..

فاسترقتُ السمع للحيظات فسمعتها تزعق: حصة اخرجي إلي بسرعة، ولما تخيلتها قد وقفت أمامها قالت: اجعلي وجهك للطوفة، وارفعي يديك للأعلى. يبدو أن الطفلة حصة تحاول إنكار التهمة عنها. فقالت لها بحدة: أنا سمعتك ورأيتك فإن لم تسكتي فستكون عقوبتك أقسى. نفذي فورًا. ارفعي يديك إلى الأعلى ووجهك إلى الطوفة، ثم اتجهت إلى التلميذات قائلة: ألم أقل لكنّ منذ بداية العام إنني في حصتي أود إن رميت إبرة على الأرض أن أسمع صوتها، هل فهمتن؟.

ويضيف: في حصة الدين سمعتها تعيد تلاوة سورة الإخلاص أكثر من مرة على مسامع التلميذات الوهميات إلا أنها تتعثر عندما تنطق لفظة (كفؤًا).

هذا ديدنها أكثر الأيام، ما شجعنا على سؤالها:

– يا ميمي الأمورة، ما العمل الذي ترغبين القيام به عندما تتخرجين في الجامعة؟

– أريد أن أصبح (أبلة) مدرسة.

هذه الإجابة لم ترق لوالديها؛ لأنها وحيدتهما، فيحاولان إقناعها بأن تكون طبيبة؛ فتحدثها أمها عن عمل المعلمة المرهق المحصور بتعليم الأطفال الصغار والصبية. أما الطبيبة فتعمل على إزالة آلام المرضى صغارًا وكبارًا حتى يرتاحوا في نومهم وجلوسهم، ولكي تؤكد لها ذلك ذكّرتها بألم أصابها وكان مصحوبًا بصعوبة في التنفس فلم

تستطع النوم. فأخذت تبكي من شدة الألم ما اضطر أمها إلى أن تأخذها للطبيبة التي فحصتها وكتبت لها دواء أزال -بفضل الله تعالى- ألمها وسهّل عليها التنفس لتنام نومًا عميقًا.

مع ذلك بقيت مصرة على رغبتها بأن تكون معلمة، إلى أن هيّأ الله لها أن ترافق خالتها المهندسة التي تعيدها ظهرًا من الروضة في أكثر الأيام، وتأخذها أحيانًا في العطل إلى الألعاب والأسواق ما وطّد العلاقة بينهما، فأصبحت ميمي الطفلة لا ترفض لخالتها طلبًا. كانتا تتناقشان نقاش الند للند. فإن تعذر على الخالة إقناعها وغدا النقاش عقيمًا وضعت الخالة حدًا له بأن تنظر إليها نظرة ثابتة ممتدة، فتفهم الطفلة أن خالتها تقول لها: كفى اسكتي، فتسكت. هذه العلاقة الطيبة توطدت، وتعمقت، وسرى تأثيرها في ميمي إلى درجة أنها غيرت رأيها فيما ترغب أن تكون. فإذا سألتها عن رغبتها قالت لك فورًا: أحب أن أكون مهندسة مثل (..) وتذكر اسم خالتها.

هذا التغيير في الرغبة لم يبعدها عن ممارسة تقليدها للمعلمات بل استمر حتى نهاية العام الدراسي، فمعظم الأيام بمجرد عودتها من المدرسة تدخل إلى غرفة الجد، وتقف أمام الخزانة لتقدم درسًا للتلميذات..

يا ترى أتبقى رغبتها ثابتة في أن تكون مهندسة أم تعمل الأيام على تغييرها؟

إن معرفة نفسية الطفل ومراعاتها من قبل المربين سواء أكانوا آباء أم معلمين ضرورية لبناء علاقة صحيحة معه، فقد تثمر إبداعًا

لم يكن ليظهر لولا هذه العلاقة البعيدة عن التفكير السطحي بدعوى أن الطفل لا يفهم، وأي شيء يرضيه. علينا أن نمحو هذا من قاموسنا، ولنعامل أبناءنا بالحسنى، ولنعطهم الفرصة ليختاروا بحرية جاعلين تدخلنا للتوجيه والإرشاد، ولنغرس المحبة فيما بينهم حتى يبنوا مجتمعًا متحابًا يقدّر الآخرين.

❊ ❊ ❊

الحكاية السابعة

التغيير المفاجئ

حسن صبي في الثالثة عشرة من العمر، انتسب هذا العام إلى مدرسة متوسطة قريبة من بيته. أحب الدراسة وعشق التفوق؛ لذلك تراه نشيطًا مجتهدًا مواظبًا على دروسه، طموحًا، يقوم بواجباته المدرسية على أكمل وجه، يسمع نصائح معلميه، ويعمل على تطبيقها، ينتبه في الحصة الدراسية لكل شاردة وواردة يقولها معلموه ليحقق ما يصبو إليه من تفوق. كان حريصًا على مذاكرة ما يتعلمه أولًا فأولًا؛ لذلك استطاع بجهده ومثابرته وإصراره أن يحصد في نهاية العام الدراسي الترتيب الأول على مستوى الصف السابع في مدرسته المتوسطة.

كما أنه اجتماعي يحب الآخرين ومخالطتهم ومساعدتهم، يحترم الناس ولاسيما الأكبر منه سنًا، دمث الخلق، لمّاح مبادر، خفيف الظل إلى درجة ملفتة، حديثه شيق.

هذه الخصال الحميدة التي يتمتع بها حسن جعلت اسمه يتردد على ألسنة مدرسيه. فإن ذكر أحد المدرسين نشاط حسن أو اجتهاده انبرى مدرس آخر يثني عليه، بل يضيف له مأثرة أخرى،

حتى وصل الحد بأن قالوا عنه: صبي عقله أكبر من سنه. عرفه كل من في المدرسة حتى المستخدمان اللذان يقومان على خدمة المدرسة لمسا أفعاله الحميدة ومشاعره الإنسانية النبيلة. ذات يوم كان أحد المستخدمين يقدم الشاي للمدرسين، فسمعهم يذكرون سيرة حسن فقال: يا أساتذة، هذا الصبي عجيب جدًا، منذ شهر تقريبًا جئت إلى المدرسة متأخرًا عن بدء الدوام، ولما دخلت إلى غرفة المدير لأعتذر، وأبيّن سبب تأخيري وجدت حسنًا عنده. سلمت، وقلت للمدير: أستاذ محمد أرجو ألّا تؤاخذني على التأخير؛ فقد اضطررت إلى أخذ طفلتي الصغيرة إلى الطبيب بعدما تعذر علينا تخفيض حرارتها بكمادات الماء البارد.

فكانت عيادة الطبيب مزدحمة بالمراجعين ما سبَّب تأخيري. حسن سمع حديثي، وفي اليوم التالي جاءني يسأل: عمو إن شاء الله صحة ابنتك اليوم أفضل، وقدّم لي علبة فيها دمية قائلًا: هذه هدية بسيطة لطفلتك أرجوك أن تقبلها مني، وتعطيها لها فقد تفرحها. بالفعل يا أساتذة لما أعطيت الطفلة العلبة أخذتها، ثم فتحتها بسرعة ولما رأت الدمية فرحت فرحًا لا حدود له، حتى إنها بدأت تأخذها معها أينما تحركت في البيت.

كان حسن كثير التردد على المشرف العام بالمدرسة بعدما كلفته إدارة المدرسة الإشراف على فريق النظام الذي استحدثته ليساعد الموجهين على ضبط الطلاب بالأجنحة، ولا سيما أيام تساقط الأمطار التي قد تحول دون خروج الطلاب من فصولهم

إلى الباحات في الفسح. فارتأت إدارة المدرسة اختيار طالب من كل فصل يشرف على الطلاب عندما يلزمون فصولهم إذا كان الجو ماطرًا.

كما رمت إلى تحقيق أهداف تربوية أخرى منها: أن تغرس في نفوس الطلاب روح التعاون وفن القيادة الذاتية، وتعويدهم على تحمل المسؤولية، وممارسة الصدق والأمانة؛ لذلك أضافت للفريق مهمة الاحتفاظ بكشف الغياب، ودفتر توقيع المدرسين لكن بإشراف مباشر من موجهي الأجنحة. فإن حصل تقصير من أي عضو في الفريق يتولى موجه الجناح معالجته، ثم يقدم تقريرًا إلى مدير المدرسة يبين فيه نوع التقصير، وكيف عولج! على أن تعرض التقارير فيما بعد على أول اجتماع لمجلس الإدارة الذي يتكون من الهيئة الإدارية في المدرسة واثنين من مدرسي المواد الرئيسة.. مهمة المجلس مناقشة تقارير لجنة النظام، وما يستجد في المدرسة، ليتخذ الإجراءات المناسبة.

مضى من العام الدراسي الجديد بضعة أشهر أبدى فيها حسن نشاطًا متميزًا برئاسته لفريق النظام في عامه الثاني على التوالي رغم صغر سنه، ما أهّله ليكون أحد الطالبين اللذين يمثلان الطلبة في مجلس المدرسة. في هذه الفترة رغبت إدارة المدرسة أن ترسم مخططًا لاحتفالية ستقيمها بمناسبة وطنية قادمة؛ فدعا مدير المدرسة مجلس الإدارة للاجتماع حتى يتفق أعضاؤه على برنامج الاحتفال، وليختاروا عريفًا للحفل من الطلاب أنفسهم. فاقترح

المشرف العام الطالب حسنًا رئيس مجلس الطلاب عريفًا للحفل، لكن أعضاء المجلس انقسموا بين من يشكّك بقدرات حسن، وآخر يؤكد جدارته على القيام بالمهمة. فمن الذين تحمسوا بشدة لترشيح حسن عضو مجلس الإدارة مدرس الرياضيات الذي رأى حسنًا مناسبًا لعرافة الحفل، مدللًا على كفاءة حسن بحدث وقع قبل حصته في الفصل، حيث تمكن حسن من معالجته بمسؤولية، ورباطة جأش، وثقة بالنفس قلما تصدر من فتى في سنه، فقال المدرس: اسمحوا لي ببضع دقائق أن أقصّ عليكم كيف عالج حسن حدثًا وقع في فصله. فمنذ قرابة شهر كان الجو باردًا، والسماء ملبدة بالغيوم ثم تساقطت الأمطار بغزارة ما حال دون خروج الطلاب في الفرص إلى الباحات، بل التزموا فصولهم يراقبهم طلاب النظام.

فأحد الطلاب في فصل حسن استأذنه بالخروج ليقضي حاجته، الطالب في طريقه للخروج صدم بواري المدفأة فسقط جزء منها أرضًا مصدرًا صوتًا مرعبًا. صاح على إثره الطلاب بصوت مرتفع (هيه)، كما تناثرت مخلفات المازوت المحترق أرضًا. كان حسن يقف بالباب، ينظر إلى السماء فلما سمع صوت ارتطام البواري بالأرض، وصياح الطلبة أغلق الباب، وهدّأ زملاءه، ثم نادى اثنين منهم ليساعداه على إعادة البواري إلى مكانها حتى لا يصل الخبر إلى المشرف فيتعرض زميله للمساءلة، ثم العقاب.

التزم الطلاب بأماكنهم هادئين، وأخذوا ينظرون إلى تصرف حسن. في المقابل وقف المسبب جامدًا مذهولًا خوفًا من عقوبة

إدارة المدرسة حتى نسي نفسه، فلا هو تابع الخروج لقضاء حاجته، ولا هو أسرع ليساعد زملاءه.

بدأ الطالبان يساعدان حسنًا، فنقلا طاولة المعلم إلى مكان قريب من المدفأة، ثم وضع حسن عليها كرسيًا، واعتلاه، وطلب من أحدهما مناولته البوري الأول فأدخله في البوري الثابت، وطلب من الثاني سلكًا يربط به البوري، فإذ بالمستخدم يفتح الباب فجأة، فيرى ما لم يكن يتوقعه. فصاح بصوت مرتفع على الطلاب: ماذا تفعلون؟ أجابه حسن بكل هدوء: عمو (أبو يعقوب) سقط البوري فأحببت إعادته إلى مكانه حتى لا أشغلك.. صمت المستخدم، وتذكر موقف حسن، وهو يقدم له دمية، ويقول: هذه لابنتك المريضة يا عمو. أخذ الرجل نفسًا عميقًا.. هز رأسه وقال:

– يا ولدي لمَ لمْ تخبرني؟

– عمو الأمر ميسّر، والمدفأة مطفأة، وأنت مشغول دائمًا، فقلت: أعيد البواري إلى وضعها.

– ولدي حسن، انتظرني لحظة.

وضع المستخدم ما في يده، وخرج ليعود من جديد مصحوبًا بزميله يحمل سلّمًا وأسلاكًا. أكمل الرجلان ما بدأه حسن وزميلاه لتعود المدفأة إلى سابق عهدها. شكر حسن لعمّيه صنيعهما.

تابع المدرس قائلًا: لما دخلت الفصل لفت نظري بقايا المازوت

في الأرض، فسألت حسنًا عن ذلك فأجاب:

– أستاذ، وقع بوري من بواري المدفأة. فقام المستخدمان بتثبيته.

اكتفيت بإجابته وقتئذ، وبدأت حصتي متأكدًا من حل الطلاب للواجب، فسمعت الباب يقرع. فتحته فإذ بالمستخدم يستأذن الدخول ليمسح الأرض، ثم ملأ خزان المدفأة، وأشعلها. أكملت حصتي ولما هممت بالخروج قلت: حسن بعد الحصة الرابعة ائت إلي. ولما جاءني سألته: ما الذي حصل في الفصل حتى سقطت البواري؟

لم يخفِ حسن ما حصل بل قصّه علي كاملًا. هززت رأسي إعجابًا بتصرفه ثم شكرته، وطلبت إليه ألا يعرّض نفسه للمخاطر في سبيل غيره، ففي أحايين كثيرة نحتاج إلى أصحاب الخبرة والدراية لإصلاح الخلل لأن النية الطيبة والاندفاع في العلاج لا يكفيان.

في نهاية النقاش توافق الجميع على تكليف حسن بعرافة الحفل، فقام بها على أكمل شكل.

لكن هذا الصبي النشيط المحب للخير المبادر فجأة تغيّر وضعه الدراسي في الصف الثامن، فنشاطه خفّ، وتعاونه مع الإدارة قلّ، بل بدأ يتغيب عن الدوام بعدما كان من أكثر المواظبين عليه، كما بدأ مستواه التعليمي ينحدر إلى مستوى صعق مدرسيه وإداريي المدرسة، فنزل مستواه من الممتاز (٩٧) إلى (٧١).

هذا التغيير المفاجئ دفع أحد إداريي المدرسة إلى البحث عن السبب، مستغلًا علاقته الطيبة بحسن، فالإداري يعامل الصبي بالندّية بعدما لمس منه تجاوبًا وفطنة وقدرة على الفهم والأداء وحسن التصرف؛ فأشركه بالعديد من الأنشطة المدرسية على المستويين الداخلي والخارجي، ليحقق حسن مراتب متقدمة جعلت له بصمة في مشاركات المدرسة في الأنشطة على مستوى المحافظة، فتوطدت علاقته بالمشرف كأخ أكبر لا يخفي عنه شيئًا، لكن مستوى حسن الدراسي المنحدر أرّق المشرف، ودفعه للبحث الجاد والسريع ليعرف الأسباب عله يحد من الخط البياني المنحدر. وفي نهاية دوام يوم الخميس قال المشرف لحسن:

– أريد منك أن تأتيني إلى البيت غدًا بعد صلاة الجمعة.

– حاضر أستاذ، سأستأذن أمي، وآتيك بإذن الله.

في اليوم التالي عندما حانت صلاة الجمعة ذهب المشرف لأدائها، ولما انتهت شعائرها عاد إلى البيت ينتظر قدوم حسن الذي لم يأت. ومرّت عدة ساعات بعد الصلاة وحسن لم يأت. وضع أهل المشرف الطعام ونادوه، لكنه أجّل مشاركته آملًا بأن يصل حسن ليتناول الطعام معه. وكلما تأخر حسن تواردت علي المشرف الظنون، فقال في نفسه: يا ترى، أوالدته لم تسمح له بالمجيء، أم عرف أنني سأسأله عن سر هذا التغيّر المفاجئ؟ عاش الرجل سويعات في دوامة مع هواجسه التي قطعها قرع الباب

الخارجي.. هبّ إلى الباب مسرعًا، فتحه فإذا به يرى حسنًا أمامه بشحمه ولحمه، يقول:

– السلام عليك أستاذي العزيز..

– وعليك السلام.. لقد خشيت ألا تحضر.

– أيعقل أن يطلب مني أستاذي وقدوتي طلبًا ولا ألبيه؟ أرجوك أستاذي أن تقبل اعتذاري عن التأخير فظرف طارئ حصل أخّر مجيئي..

– لا عليك ما دمت حضرت.

أمسك الرجل بيد ضيفه وسار به مباشرة إلى مائدة الطعام، فلما انتهيا من الطعام قال لضيفه: سنشرب الشاي في مكتبي. وهناك بدأا الحديث:

– حسن، أنت بمنزلة أخي الصغير، وصديقي أيضًا، أليس كذلك؟

– بلى أستاذي، هذا شعوري تجاهك فأنت أخي الأكبر ومعلمي وقدوتي وصديقي..

– حسن، أنت من الطلاب الفائقين في المدرسة، الكل يتكلم عن نشاطك واجتهادك، وهم يحبونك كثيرًا. أقسم بالله إنني صديق صدوق لك، محب مخلص حريص على مصلحتك؛ لذلك سأنقل لك بأمانة ألم مدرسيك الذين فاجأهم تدني مستواك

العلمي وغيابك المتكرر، وانطواؤك على نفسك، حتى كدنا جميعًا نخشى عليك الأسـوأ، وبأن يستمر خطك البياني منحدرًا؛ فأنا مضطر إلى التدخل علني أساعدك في إيقاف هذا الانحدار في تحصيلك العلمي؛ لأنه لا حديث للمدرسين هذه الأيام إلا ما طرأ على مستواك ونفسيتك.

صمت حسن لحظة والدمعة تكاد تفر من عينه، لكنه تماسك وقال:

– أستاذي، كم أنت كبير، لم يسألني أحد عما أعانيه حتى من أقاربي، ولن أطيل عليك بل سأخبرك خبري لتكون الأول وقد تكون الأخير.

– كلامك هذا يوفر علينا الكثير، فأرجوك أن تقص عليّ المهم؛ لأن التفاصيل لا تهمني كثيرًا.. هل اتفقنا؟

– نعم أستاذي، سأكون معك صادقًا لعلك حقًا تساعدني، فأنا أخشى على نفسي. يا أستاذي العزيز، في حرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣ أصيب والدي إصابة بالغة أقعدته، فغدا من رواد المستشفيات، فقلما يمر أسبوع من دون أن يراجع مستشفى أو طبيبًا، لكنه في أواخر العام الدراسي الماضي تعب نفسيًا، وساءت حالته، وتراجعت صحته حتى نفض الأطباء يدهم من شفائه فقالوا: لا تعذبوا الرجل بالمجيء إلى المستشفى بل أبقوه في المنزل. وبالفعل لم يعمر أكثر من شهر حتى توفي. فتركني

وأختًا لي تدرس في الصف السادس حاليًا. حزنّا كثيرًا عليه، هذه إرادة الله، و(لا حول ولا قوة إلا بالله).

انتهت عدة والدتي ومر الشهر الأول، فالثاني، فجاء إليها خالي ليقول: يا أختي، ابنك وابنتك في بداية مرحلة خطيرة من العمر فهما يحتاجان إلى من يهتم بهما من الرجال وابن عمك (..) يطلب يدك مني فلا تضيعي الفرصة؛ لأنه مستعد لأن يرعاهما لك أحسن رعاية. رفضت أمي في البداية، وأنا جن جنوني، لكن خالي أصر على موقفه قائلًا: نحن لا نسمح لامرأة منا أن تبقى بلا رجل حتى لو كان صوريًا.

تدخل غير واحد من أسرتنا لمساعدته في إقناعها، وبالفعل تمكنوا من ذلك. فماذا أفعل بمفردي، أستاذي.. يا من أكن له الحب والتقدير؟ في نهاية المطاف استسلمت للواقع. حتى إمام المسجد لما سألته قال لي: هذا حقها الشرعي يا ولدي..

تزوجت أمي ابن عمها الذي سكن معنا في البيت وعاملنا في بداية زواجه بلطف ورقّة، كما أشعرنا بأنه يخاف علينا، لكن الأمور تغيرت كما يقولون ألف بالمئة بمجرد أن حملت أمي منه، حيث قلبَ لنا ظهر المجن مبديًا لؤمًا يصعب وصفه وكرهًا وبغضًا لا مثيل لهما، وبخاصة لي؛ لأنني رفضت زواجه من أمي. فإذا سهرت للمذاكرة جاء وأطفأ النور وقال: أنت تسرف في استخدام الكهرباء فلا حاجة للمذاكرة ليلًا، يمكنك أن تذاكر نهارًا.

ليس هذا فقط بل أصبح لأتفه أمر يثور ويجعل من أي تصرف

لي قضية ليختلق الخلاف معي، فأصبحت أمي بين نارين: زوجها وابنها. فأشفقتُ عليها، ولكي لا تزيد عصبيته وصراخه أترك البيت، وأدور في الشوارع حتى ساعة متأخرة ليلًا. فأنى لي أن أذاكر؟ كم مرة فكرت بترك البيت والذهاب إلى مكان بعيد لا يعرفني فيه أحد، لكنني أخشى على أختي..

تنهد الصبي من شدة القهر، وعيناه تذرفان بالدموع.

هنا تدخل المشرف:

- ألم تحدث خالك بالذي يجري؟

- للأسف خالي إلى جانبه دائمًا، فلا يسمع شكواي، وإذا سمعها في أحسن الأحوال يقول: سأكلمه يا ابن أختي، حاول أن تتأقلم مع حياتك الجديدة، هذه إرادة الله.

هل عرفت السبب الآن أستاذي؟ أرجو ألا تلومني.. صمت المشرف لحظة ثم قال:

- حسن، أنت عزيز علي، فإصلاح ذات البين بينك وبين زوج أمك عسير للغاية. فالرجل يبدو لي أن موقفه منك سلبي يصعب تغييره في هذه الفترة على الأقل. فالأولى أن نفكر بحل آخر يمكّنك من متابعة دراستك بعيدًا عن المنزل. فلدي رأي خلاصته أن أحصل على موافقة المدير بأن يسمح لي بأن أنسخ لك نسخة عن مفتاح غرفتي في المدرسة ومفتاح البوابة الخارجية لتأتي كل يوم جمعة أو عطلة إلى المدرسة منذ الصباح الباكر حتى لا يراك أحد، وتبدأ

المذاكرة في غرفتي حتى المساء، وتستمر هكذا دواليك حتى نهاية العام. كما سأطلب من المدرسين أن يساعدوك ويذاكروا لك ما فاتك من دروس، فما رأيك؟

تسمرت عينا حسن في وجه المشرف، ولم يتمالك نفسه فبدأت دموعه تنهمر، وسكت هنيهة ثم قال:

– الشكر، أستاذي الكريم، لا يوفيك صنيعك أبدًا؛ لأن شعورك الإنساني النبيل يزيد حبك في قلبي. فأرجوك من قلبي أن تقبل اعتذاري عن قبول عرضك الذي قد يعرضك للمساءلة مستقبلاً عن دخولي إلى المدرسة في أيام العطل إن وقع ما لا تحمد عقباه أو انكشف أمري لمسؤولي التربية.

– لا تهتم فأنا أتحمل كل التبعات، لكن شرطي ألا تأتي بأحد معك مهما كانت صلته بك، ولا تخبر أحدًا بما حدثتك به، فمجيئك ليكن مبكرًا، ولا تستخدم النور الذي قد يلفت النظر، وتقصّد التواري في دخولك وخروجك من المدرسة حتى لا يراك أحد من الجيران.

– ما دمت أستاذي مصرًّا فتوكّل على الله.

– إذًا سأبدأ ترتيب الأمور غدًا.

غادر حسن بيت المشرف. وفي اليوم التالي بدأ الرجل مهمته بإبلاغ المدير الذي تحفظ أولًا، لكنه وافق بعد أن أبدى أمين السر (المشرف) تحمله للمسؤولية كاملة، فقال المدير للرجل:

– أستاذ اعتبر نفسك لم تخبرني..

– كما تشاء أستاذي الكريم، أنا قمت بذلك من تلقاء نفسي ومن دون علمك.

في اليوم نفسه مساء نسخ المشرف مفتاحين آخرين، وأعطاهما حسنًا الذي بدأ يذاكر دروسه في كل يوم جمعة منذ الصباح الباكر وحتى قبيل الغروب، حريصًا كل الحرص على ألا يراه أحد في دخوله وخروجه. وفي أثناء الدوام كان يراجع معلميه يوميًا ليشرحوا له ما استغلق عليه، فذكاؤه ومراجعة المعلمين له دروسه أولًا فأولًا عوّضاه ما فاته من دروسه، وليحقق في أول اختبار أجرته المدرسة في الفصل الثاني تحسنًا ملموسًا، لاقى ارتياحًا من الجميع في المدرسة، حيث اعتبروه مؤشرًا إيجابيًا على أن خط تحصيله العلمي بدأ بالصعود ليتمكن حسن بالفعل في نهاية العام الدراسي من رفع معدله إلى (٨٨) من مئة.

هذا التقدير أعاد له الثقة بالنفس، ودفعه للاستعداد للعام القادم الذي سيختم بامتحان على مستوى الدولة، وفي ضوء نتائجه يتقرر مصيره المستقبلي، فإما أن يتابع تحصيله العلمي في مدارس النظام العام وإما أن يتوجه إلى التعليم الفني.

اعتبر حسن فترة المذاكرة التي عايشها في نهاية العام الدراسي بداية الطريق نحو المستقبل، فصمم منذ بداية العام الدراسي الجديد على أن يحصد ترتيبًا متقدمًا على مستوى المحافظة

في الشهادة المتوسطة، لكن حدثًا مفاجئًا أربك كيانه، وأثر فيه كثيرًا، فالذي كان يعدّه في المدرسة أخًا وصديقًا وسندًا رُقّي، ونُقل بموجب الترقية إلى مدرسة أخرى في محافظة أخرى.

حزن حسن بمجرد أن وصله الخبر حزنًا شديدًا حتى بكى.. لكن وعده المشرف (المنقول) بأن يبقى الود والتواصل بينهما مهما شطت المسافات، وبأنه سيبقى متابعًا له في دراسته، فكلما سمحت له الظروف سيمر على المدرسة ليطمئن على أخيه الصغير حسن. بالمقابل اختزن حسن قناطير من التقدير والاحترام لهذا الرجل الذي سخره الله له، فتوجه لله شاكرًا أن منّ عليه بأخ لم تلده أمه يأخذ على عاتقه نصحه ومساعدته.

استمر التواصل بينهما خلال العام الدراسي وتقدم حسن إلى امتحان الشهادة المتوسطة، حيث تمكن من تحصيل مجموع يؤهله للانتساب إلى المدارس العامة. فسجل في إحدى المدارس القريبة من منطقته، وبدأ مرحلة جديدة شارك خلالها في أنشطة مدرسته على المستويين الداخلي والخارجي، واستطاع في بعضها أن يكون الأول على مستوى المحافظة، مستفيدًا من الخبرة التي اكتسبها من العمل مع المشرف.

بقي حسن يزور المشرف في بيته ليستشيره في أمور دراسته، ويطلعه على أحواله ليبصره كيف يتصرف حتى جاء للرجل عقد عمل خارجي.

غادر المشرف البلاد، وقد ترك خلفه شخصًا أصبح يعتمد على نفسه بعدما حصّنه ووضعه على السكة الصحيحة، فالشاب قوي عوده، وغدا يتمتع بسلوك إيجابي يمارس حياته اليومية، ويقوم بكل ما يطلب منه على الوجه الأكمل معتمدًا على نفسه، حتى وصل إلى مستوى متقدم وظيفيًا قياسًا بسنه.

هذا المآل الذي وصل إليه على مستوى محافظته لم ينسه من وقف إلى جانبه، فهو يحمل له بين حناياه كل تقدير وعرفان بالجميل من دون أن ينسى مصيره المؤلم لو لم يلتفت إليه هذا الرجل وتركه إلى مصيره كما فعل الآخرون ممن كانوا حوله.

لكن الرجل في الحقيقة مارس عمله بأمانة، وكسب ود الصبي أولًا، وعمل ثانيًا بدور المربي الذي يؤدي عمله بإخلاص بالبحث عن مواطن الخلل ومعالجتها. إنه بعمله هذا غرس في حسن قيمًا حميدة ومشاعر نبيلة وسلوكًا إنسانيًا إيجابيًا جعله يقبل على خدمة الآخرين بلا مقابل. لأن المشرف وقف إلى جانبه لمّا تركه أقرب الناس إليه وتحمّل المسؤولية كاملة لانتشاله من مآل لا تحمد عواقبه، ضاربًا بمقولة: (ما لي وما له. أهله أولى به، ومع ذلك أهملوه، فلم أحمل نفسي عناء وأشغل وقتي بغيري؟).

هذا -والله- كلام سلبي لو أخذ به الرجل لخان الأمانة التي

تولاها، وسيحاسب عليها دنيا وآخرة، لكن إحساسه بمسؤوليته التربوية أسهمت في تغيير حسن ليكون مواطنًا صالحًا يخدم الآخرين بأمانة.

فأي المسلك نريد في وطن يعيش في عالم يتسابق ناسه على تصدر قوائم الحضارة التي كان أسلافنا في سنامها من قبل..؟

ليعمل كلٌّ منا بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾، ولنطلب الأجر من الله غير مكترثين بما يقال؛ لأننا نذرنا عملَنا لوجه الله الكريم..

* * *

الحكاية الثامنة

أيُولّد الحب ثقة؟؟

قبل عشرات السنوات لم تكن في كثير من القرى رياض للأطفال؛ لذلك يُترَك الطفل حتى سن السابعة، فإذا بلغها أسرع أهله إلى إدخاله المدرسة الابتدائية من دون النظر إلى حجم جسمه أو مستواه العقلي حتى لا يفوته قطار التعليم، فبعض الأطفال قد تبدو أجسامهم أكبر من سنهم، أو مستواهم العقلي أقل من حجم أجسامهم، والعكس.

بلغ خالد عامه السابع، وكان من ينظر إلى جسمه لا يقدر عمره بأكثر من خمس سنوات. كان والده ينتظر بلوغه السابعة بفارغ الصبر حتى يسجله في المدرسة؛ لأنه وحيده من الذكور. فبمجرد أن وصلها، وسمح له القانون بالانتساب إلى المدرسة سجل الأبُ خالدًا فيها، وكتم التسجيل عنه حتى صبيحة اليوم الأول من أيام الدراسة. ففي ليلة ذلك اليوم ذهب خالد إلى فراشه ككل الأيام، واستسلم للنوم كعادته، لكنه فوجئ في الصباح الباكر بأمه توقظه على غير العادة. فاستغرب فعلها، فرك عينيه، وسألها: أماه لم توقظيني مبكرًا؟ نظرت إليه مشفقة وقالت: حبيبي خلّود، أبوك

طلب مني أن أوقظك، فلك عنده مفاجأة.

أجابها بصوت مرتفع، وهو ما زال يفرك عينيه:

– مفاجأة، مفاجأة.

تهلل وجهه بشرًا وقال:

– بالله عليك أعيدي ما قلت.

– قلت يا كبدي: لك مفاجأة، فلماذا الاستغراب؟

– أمي، بالله عليك. ما هي؟

– حبيبي خلّود، كيف أخبرك، وأنا أقول لك مفاجأة؟ لا تتسرع يا ولدي، لقد وعدني أبوك بأن يخبرك بنفسه إن كنت هذا اليوم نشيطًا ومستعدًا للمفاجأة.

نهض من فراشه مسرعًا، وكل همه أن يعرف المفاجأة. توجه فورًا إلى وسط الدار وغسل يديه ووجهه من ماء البحيرة الصغيرة، منتظرًا أن يبوح له أبوه بالمفاجأة، لكنه سمعه يقول:

– تعال يا خالد، حتى نتناول الفطور معًا.

أقبل خالد على أبيه، وبدأ يأكل، وهو على أحر من الجمر، بانتظار أن يكشف له أبوه عن المفاجأة. أنهى طعامه بسرعة ولم يسمع شيئًا من أبيه إلا: يا ولدي، اذهب والبس أجمل ما عندك من ثياب. ظن الطفل أن أباه سيأخذه إلى بيت خاله في المدينة، فأخرج أجمل

ما عنده من الملابس، وبدأ يقلّبها ليختار أحسنها ثم ارتداه، وصاح: أبي،أبي، أنا جاهز. فردّ الأب: وأنا. سارا إلى الباب الخارجي، هناك جلس الأب القرفصاء، وقال لخالد: اصعد على ظهري. استغرب الطفل هذا الكلام، لكنه صعد على ظهره خجلًا، ولما استوى نهض الرجل، وسار متجهًا شمالًا لا جنوبًا أي عكس طريق المدينة.

في الطريق أخذ الأب يحدّث ابنه عن فضل العلم وأهميته، وتقدير المتعلمين ومكان تلقي العلم فقال: يا ولدي، المدرسة تُعلّم الأطفال الصغار القراءة والحساب، وحفظ القرآن الكريم، والنظام، وفيها يكوّن الأولاد صداقات، مع أترابهم. فكلما تقدم بهم التعلم أكثر زادت معرفتهم؛ لأنهم ينتقلون إلى مدرسة أكبر من الأولى، فالمدرسة الثانية يا ولدي كبيرة جدًا، إنها بحجم أرضنا التي نزرعها طماطم، لذلك يطلقون عليها اسم (الجامعة)، كم أتمنى أن تواظب على الدراسة حتى تسجل في الجامعة ثم تتخرج فيها. فما رأيك بالمدرسة يا خلّود؟

لم ينبس الطفل بكلمة بل دُهش من هذا الكلام الذي يسمعه للمرة الأولى. فأضاف الأب: يا ولدي في نهاية كل سنة بالمدرسة يكون (فحص) للتلاميذ، فمن ينجح فيه ينتقل إلى صف أعلى. هكذا تستمر الحال حتى ينال الطالب الشهادة الكبيرة (البكالوريا). تصور نفسك يا ولدي وأنت تدخل المدرسة التي لم تقل لي رأيك فيها ثم تقدمت للفحص عامًا بعد آخر حتى تحصل على (البكالوريا) الشهادة الكبيرة، وقتها سأفرح بك وأفتخر،

وسأضع شهادتك في (برواز) ثم أعلقها في صدر المضافة مزهوًّا بها أمام رواد مضافتي. كما أن شهادتك هذه تؤهلك للالتحاق بالجيش لتكون ضابطًا كمعلم خالك، حينئذ يفرزون لك سائقًا وسيارة كسيارة خالك.. أو تذهب للجامعة؛ المدرسة الكبيرة. ما رأيك يا بطل بالمدرسة الآن؟

لم يجب خالد لأنه مدهوش من هذا الحديث، بل نظر أمامه فوجد أولادًا كثرًا يلعبون في ساحة ترابية في نهايتها غرفة كبيرة. التفت إليه أبوه نصف التفافة، وقال: هذه ساحة المدرسة التي أحدّثك عنها، لقد سجلتك فيها. منذ نهاية السنة الدراسية السابقة.

هذا الكلام شكّل مفاجأة حقيقية لخالد، فلم يخطر على باله من قبل؛ لذلك استسلم لمصيره، فهو الآن في الساحة التي يتجمع فيها التلاميذ منتظرين الإعلان عن بدء الدوام المدرسي. وقف الأب وابنه منتظرين كغيرهم، وإذ بطفل ضخم الجسم يقف في باب الغرفة التي تحرس الساحة، نفخ في صفارة بيده. فلما سمع الأولاد صوت الصفارة وقفوا في أماكنهم، ثم نفخ أخرى فهرعوا إليه وشرعوا يصطفون ذاتيًا في خطوط مستقيمة. بعد لحظات خرج معلم المدرسة ووقف منتظرًا استكمال الخطوط التي كان يتابعها طلاب النظام. اقترب الأب من المعلم، وحيّاه:

- أستاذنا الكريم لما سجلت الولد أعطاني المدير هذا المغلف، تفضّل.

تناول المعلم المغلف، فضَّه، فوجد ورقة كتب عليها اسم الطفل والصف والتاريخ. التفت إلى الطفل وقال له: اذهب يا بُني إلى الطابور، مشيرًا إلى خطي الصف الأول. تردد خالد، وبقي بجانب أبيه، حيث تملّكه الخوف والرهبة. شده أبوه من يده، وسار به إلى الطابور، ثم أدخله بين التلاميذ الذين كانوا يسمعون أوامر زميلهم وهو يقول: استرح.. استعد.. مدّ يدك على طولها حتى تصل إلى كتف زميلك أمامك، ثم استقم في الصف. كانت عينا الطفل الحائرتان تنظران إلى التلاميذ الذين انهمكوا بتنفيذ ما يطلب منهم من حركات تارة، وتارة أخرى إلى أبيه الذي تركه لمصيره بين تلاميذ الطابور. اتجه الأب إلى المعلم قائلًا:

– أستاذنا الكريم، إني أضع ولدي بين يديك أمانة، فلك اللحم ولنا العظم. أتريد مني شيئًا ؟

– شكرًا يا عم، أضرع لله أن يقدرني على حمل الأمانة. توكل على الله..

غادر الرجل المكان وعينا الطفل تلاحقانه حتى توارى، بينما بدأ التلاميذ يدخلون إلى الغرفة ثم يجلسون في أماكنهم. حاول خالد تقليدهم، فجلس في المقعد المجاور للتلميذ الذي سار أمامه في الطابور. لم يكد يستقر حتى جاءه طفل ليقول له: لم تقعد في مكاني؟ لم يجبه خالد بل بقي متسمرًا في المكان. وتتابع دخول التلاميذ ثم المعلم. وقف التلاميذ احترامًا للمعلم بعدما سمعوا عريف الصف

يقول: قيام.. فقال المعلم: جلوس. سلّم على تلاميذه، فجاءه التلميذ الذي جلس خالد مكانه، وقال:أستاذ،أستاذ. الولد الجديد أخذ مكاني. نادى المعلم خالدًا،فخرج إليه خائفًا. ولما لمح خوفه وصغر جسمه أشار إليه أن يجلس في مقدمة الفصل أمامه.

بدأ المعلم حصته مشاهدًا واجب الصف الثاني، ثم طلب من أحد التلاميذ كتابة حلّه للواجب على جزء من السبورة لينصرف إلى تلاميذ الصف الأول، مدرّبًا إياهم على أحد الحروف، مستعينًا بكلمات دوّنها في جزء السبورة الآخر قرأها والتلاميذ يرددون خلفه غير مرة ثم أقرأها بعضهم، وانتقل إلى كتابة الحرف الجديد. تابع المعلم عمله طيلة الدوام المدرسي وفق ما خطط له متناوبًا بين الصفين.

في المقابل كانت أحداث اليوم الأول على خالد صعبة، فقد أشعرته بأنه يعيش في عالم مختلف عن عالمه. فلا الوقت هو الوقت الذي يعرفه، ولا المكان هو المكان؛ لذلك بمجرد أن انتهت الحصة الأخيرة، وفتح باب الغرفة لانصراف التلاميذ ولّى مسرعًا مسلمًا ساقيه للريح خوفًا أن يتراجع المعلم عن قوله: انصرفوا. وصل البيت وهو يلهث، فاستقبلته أمه بحضنها، وقبّلته بحرارة، ثم قالت: الحمد لله، والله صار لي ولد يذهب إلى المدرسة، ما أكرمك يا الله! كيف وجدت المدرسة يا كبدي؟

بكى بحرقة وقال:

- لا أحبها أبدًا، لن أذهب إليها ثانية.

- لا، لا.. يا حبيبي، كل الأولاد مثلك يذهبون إلى المدرسة. انظر حمادة ابن الجيران يذهب إلى المدرسة الكبيرة، وأنت بعد سنتين سوف تنتقل إليها، ومن بعدها تدخل مدرسة أكبر، وهناك تسكن في بيت خالك الذي تحبه لتأتي لنا بالشهادة الكبيرة. ثم تصير ضابطًا في الجيش أفرح فيك. أما الآن فتعال لتأكل. قدمت له طعامًا يحبه. فقد أعدته له خصيصًا علها تخفف من وقع المفاجأة، والتغيير الذي حدث على حياته اليومية.

في صباح اليوم التالي أيقظته أمه ليذهب إلى المدرسة، فرفض وأخذ يبكي. حاولت إغراءه بما يحب فوافق. سارت معه ممسكة يده حتى أوصلته إلى المدرسة ليبدأ يومه الثاني..

هكذا بقيت الأسرة تعاني من تردده في الذهاب إلى المدرسة كل صباح، فهو كمن يقدم رجلًا ويؤخر أخرى؛ فالأطفال الذين يلعب معهم في الحي يذهبون إلى المدرسة الأساسية لأنهم أكبر منه سنًا، فكان كيفما نظر حوله وجد وجوهًا غريبة. كم مرة تمنى صباحًا أن يجد باب المدرسة مغلقًا ولا أولاد في الساحة ليعود إلى البيت. كان رفضه اليومي للمدرسة قاسيًا على أسرته، لكن الله شاء أن يضع حدًا لمعاناتها، فذات يوم خرج إلى الساحة القريبة من مسجد القرية ليلعب مع أقرانه فوجد قريبًا له في الصف الخامس. اقترب منه قريبه مبتسمًا وسأله:

– مبارك يا خالد، قالوا سجلت في المدرسة، كيف وجدتها؟

لم يجبه، كرر قريبه عليه السؤال. فقال:

– ماشي الحال..

– كيف حالك مع الحساب؟

– ماشي الحال.

– غريب يا خالد، كلما أسألك سؤالًا تقول ماشي الحال، شو رأيك نلعب لعبة الجمع والطرح؟

نظر خالد إليه مستغربًا وقال:

– أول مرة أسمع بهذه اللعبة! فتولّد لديه شعور بالرغبة في معرفة كنهها، فقال:

– لا بأس، فلنبدأ اللعب.

– إذًا اتفقنا. انظر، بمَ يلعب هؤلاء الأولاد؟

– يلعبون بالدحل.

– حسنًا سنلعب مثلهم بالدحل، لكن سنجمعه ونطرحه. أموافق؟

زادت رغبة خالد في ممارسة اللعبة الجديدة ليعرف سرها. فقال:

– ألف موافق.

– أمستعد للبدء يا ابن العم؟

– نعم، وألف مستعد.

إذًا تصور معي يا خلّود أنني أطلبك بـ(٥) دحلات، وأخي يطلبك بـ(٧) دحلات، فكم دحلًا ستعطينا؟ أخذ خالد (٥) دحلات وقال: هذه لك، ثم أخذ سبعًا وقال: هذه لأخيك، وجلس القرفصاء وبدأ يعد المجموعتين ليعطيه الإجابة. نظر إليه قريبه وقال:

– طريقتك يا خالد تحتاج إلى وقت وإلى وسيلة تستخدمها لتحصل على الناتج. أما أنا فسأعلمك طريقة سهلة، فما رأيك؟

رفع خالد رأسه للأعلى ووضع ما في يده من الدحل أرضًا، وقال:

– يا معود ماذا تنتظر؟ بالله، شوقتني لطريقتك، علمنيها..

– يا ابن العم لنخزن العدد الأكبر في ذهننا، ففي مثالنا ما العدد الأكبر؟

– هذا سهل، العدد الأكبر هو (٧).

–إذًا يا خلّود خزّن في ذهنك سبعة ثم خذ من أصابعك بمقدار العدد الثاني فهو (٥)، ثم ابدأ بالقول: في ذهني (٧) فيكون الأصبع الأول (٨) وتابع العد مرتبًا حتى الإصبع الأخير فتكون نتيجة جمع العددين (١٢).

– بالله عليك، قل رقمين آخرين بعد حتى أجرب بنفسي.

– حسنًا، تصور أنني أريد منك (٨) دحلات، وأخي يريد (٧)، فكم نريد كلانا منك؟

طبّق خالد الطريقة، فخزن في ذهنه (٨) ثم أخذ على أصابعه (٧) وبدأ العد، كرر ثانية ليتأكد من العدد، ثم قال لابن عمه: تريدان مني (١٥).

شجعه ابن عمه وكررا أكثر من عملية فكان جوابه صحيحًا، ما شجعه ورغّبه أن يستمر في هذه اللعبة. سأل ابن عمه قائلًا:

– هذا الجمع، فكيف يكون الطرح؟

– بسيطة خلّود، بالطريقة نفسها نضع الرقم الأكبر في رأسنا والأصغر على أصابعنا ونبدأ بالعد تنقيصًا حتى الإصبع الأخير الذي يعطينا النتيجة.

طبّقا غير مرة على الطرح إلا أن قدوم الليل أنهى لعبهما الذي ختمه قريبه بقوله:

– أنت ممتاز يا خالد في الحساب. لك عندي هدية إن جئت غدًا إلى نفس المكان حتى نلعب من جديد، فأرجو أن تتدرب أكثر في البيت.

– اتفقنا.

ثم انصرف كل إلى بيت أهله.

في البيت قصّ خالد ما جرى بينه وبين قريبه على والديه فسرّا

كثيرًا، وشجعاه على صداقته. فغدا خالد متشوقًا إلى اللعب مع قريبه، فلم يكد يصدق أن موعده سيأتي، وبمجرد أن حل الموعد توجه إلى المكان فوجد قريبه ينتظره. سلّم عليه، وقدّم له صرّة فيها بعض النقل المكون من الزبيب ولب الجوز واللوز والقضامة المالحة، قائلًا:

– يا ابن العم، هذه الصرة أرسلتها لك أمي.

شكر حسين لأم خالد صنيعها وبدأ بدرسهما، فكان خالد يستجيب بسرعة، حيث علّمه حسين كتابة الأرقام الأكبر من التي تعلمها مع معلمه. فقال حسين لخالد:

– اكتب لي على التراب رقم عشرة.

كتبه خالد على الأرض.

– يا بطل ضع صفرًا على يمين صفر العشرة.

وضع خالد الصفر. فسأله حسين:

– كم خانة في هذا الرقم؟

– ثلاث خانات.

– حسنًا أيمكنك قراءته؟

تلكأ خالد، فهو لم يتعلمه بعد، فقال له حسين:

– هذا العدد (مئة)، فإذا كان الرقم واحدًا وأمامه على اليمين

صفران يكون مئة، لكن لو وضعنا صفرًا ثالثًا لأصبحت قراءة الرقم (ألفًا).

سر خالد كثيرًا؛ لأنه تعلّم أرقامًا لم يتعلمها زملاؤه بعد. إلا أن حوارهما قطعه صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب، هنا أمسكا عن الكلام، وتوجّها إلى المسجد. بعد انتهاء الصلاة أمسك حسين خالدًا من يده وأخذه معه إلى بيتهم، حيث أكرمه وأهداه ورقة ملونة مطبوعًا عليها جدول الضرب بطريقة شيقة، وقال له:

- اذهب، واحفظ من الجدول الرقم /٢/ ثم عد غدًا لأسمّعه لك.

فرح الطفل كثيرًا بالهدية، وتحركت لديه الرغبة في حفظ المطلوب بأسرع وقت ممكن. في اليوم التالي ذهب خالد إلى حسين لكي يسمّعه جدول (٢)، ولما تأكد حسين من حفظه كلفه جدول (٣). ثم توالت اللقاءات بينهما، وتتابع حفظ خالد لبقية الجدول الذي يعد أعلى من مستواه التعليمي، ما أفرحه وعزز ثقته بنفسه كما غرس فيها حب الحساب. كان حسين ينقل صورة تقدّم خالد لعمه أولًا فأولًا، فرجاه عمه متابعة خالد في القراءة والحساب؛ لأنه وأم خالد لا يعرفان القراءة ولا الحساب. لبى حسين طلب عمه ووعده أن يستمر معه.

هذا التآلف بينهما نزع التردد من قلب خالد كلية، وغدا يحب المدرسة من أجل الحساب، فجاء ترتيبه الأول على صفه في نهاية

العام. إن تفوق خالد في الحساب لفت النظر إليه، فكل من يدخل صفهم لتعليمهم يظنه متفوقًا بكل المواد، لكن الواقع غير ذلك ففي الصف الثاني نفر خالد من معلم اللغة العربية، وغدت حصص العربية كابوسًا، يحضرها مغلوبًا على أمره، فنجاحه بالعربية لا تصل نسبته إلى الجيد. في عامه المدرسي الثالث انتقل الطفل إلى المدرسة الأم المكونة أصلًا من غرفتين كبيرتين كل غرفة تضم صفين. يتولى معلم واحد تعليمهما. فمن حسن الطالع في هذا العام أرسلت مديرية التربية لكل صف معلمًا، فقرر مدير المدرسة أن يقسم الغرفة الواحدة إلى جزأين، يُدخل إلى الجزء الداخلي عن الطريق الباب الرئيس للغرفة.

ذات يوم غاب معلم الصف الثالث، فتولى معلم الصف الخامس الإشراف على الصفين، فكان أحيانًا يقف في وسط الباب الداخلي ليرى طلاب الصفين ويسيّرهما دراسيًا معًا، فكلف طلاب الخامس بحل مسألة حسابية يعتمد جزء منها على الضرب ثم انصرف للصف الثالث، ولما أنهى تدريبه انتقل للصف الخامس فطلب من أحد التلاميذ حلها فلم يوفق التلميذ في ضرب عددين ببعضهما، فسأل المعلم تلاميذ الثالث فرفع خالد يده وأجابه إجابة صحيحة.

وكلما فشل تلميذ الصف الخامس في جدول الضرب عاد المعلم، وسأل خالدًا فيجيبه إجابات صحيحة، ما ولد في نفس المعلم غضبًا أكثر على تلميذ الصف الخامس، فارتأى أن يعاقبه

على إهماله في حفظ جدول الضرب فطلب منه الخروج إلى مقدمة الصف، ثم نادى خالدًا، وقال له: اعلُ ظهر هذا الفاشل ليدور بك حول المدرسة دورتين.

انتشى خالد بما وصل إليه وبخاصة عندما يصفق له زملاؤه، فيسمع تلاميذ الغرفتين الأخريين التصفيق، ما أسهم في نشر خبر تفوقه بين تلاميذ المدرسة، حتى وصل الخبر إلى أهل القرية.

تابع خالد نجاحه من صف إلى آخر حتى وصل إلى الصف السادس. كانت وزارة التربية في نهاية كل عام دراسي تجري مسابقة لطلاب الصف السادس، فمن ينجح بالمسابقة يدخل مدارس الدولة، ومن يفشل يعيد العام أو يتوجه إلى المدارس الخاصة، فأحبت أمه بعد فترة من وفاة أبيه الذي بكاه خالد كثيرًا أن تخفف عنه وتشجعه على الدراسة لينجح في مسابقة نهاية العام، فأخذته معها بزيارتها لابن خالتها في منطقة قريبة من دمشق. كان الصبي ينادي قريبه بـ(خالي).

في مساء ذلك اليوم اجتمع لدى المضيف بعض معارفه، من بينهم شقيق زوجته طالب في الصف السابع، فأراد المضيف اختبار الصبيين، فقال: من يحل منكما المسألة التالية فله مني خمس ليرات. طرح المضيف المسألة بطريقة شيقة ليقربها لهما فقال: تصورا معي أن حافلة ركاب ستنطلق من قريتنا إلى دمشق، لكن سائقها اشترط لينطلق بها أن تُقِلّ مئة راكب موزعين بين

أطفال وشباب وكبار في السن، وأن تكون حصيلة أجرة نقلهم إلى دمشق (مئة) ليرة؛ لذلك وضع لكل فئة أجرة مختلفة عن الأخرى، فالشاب أو الصبية أجرته خمس ليرات، وأجرة كبير السن ليرة واحدة، أما أجرة الطفل فخمسة قروش أي ٢٠/١ من الليرة. انهمك الصبيان بالبحث عن الحل المطلوب، فكلاهما يبغي الجائزة. بعد وقت من البحث صاح خالد بصوت مرتفع فرحًا:

- وجدت الحل يا خالي.

- ما الحل يا بطل؟

- خالي، عدد الركاب من الشباب أو الصبايا (١٩) ومن كبار السن (١) ومن الأطفال (٨٠).

نظر إليه الرجل مبتسمًا وقال:

- إنك يا ابن أختي تستحق الشكر والجائزة، خذ جائزتك التي كسبتها.

ونقده خمس ليرات، ثم أضاف عليها (قلم حبر كاديت) تساوي قيمته وقتذاك ثلاث ليرات.. تهلل وجه أم خالد بشرًا بفوز ولدها وهي تنظر لقريبها يحدّث خالدًا قائلًا:

- يا خالي استمر على اجتهادك ومثابرتك على الدراسة؛ لأنك إن نجحت في مسابقة الصف السادس هذا العام فستوفر على والدتك الكثير من المال.

وعد خالد خاله (المضيف) بأن يعمل بتوصيته ويجتهد لأنه يعرف أن رسوبه سيضيع عليه عامًا من حياته، فهو سيضطر إلى إعادة الصف السادس ثانية؛ فوالدته لا تملك مالًا تدفعه للمدارس الخاصة أو سيترك المدرسة ليعمل في أرض أبيه فلاحًا..

عاد خالد من زيارته، ثم التحق بمدرسته وواظب على دروسه، وقد وضع نصب عينيه أن ينجح في مسابقة نهاية العام ليكمل دراسته.

تقدم خالد لامتحان نهاية العام، لكن إجاباته في العربية لم ترُقْ له فخشي أن يرسب بسببها. ولما صدرت النتائج في الصحف كان من سوء حظه أن بضع مدارس سقطت نتائجها من الصحف، ومنها مدرسته، فتوقع أن مدرسته لم ينجح منها أحد. حبس نفسه في حظيرة حيواناتهم، وبدأ يبكي ويندب حظه العاثر، بل امتنع عن الطعام تلك الليلة، ورفض أن يقابل أحدًا من الناس. حاولت أمه أن تخفف عنه وتقول له:

- يا ولدي، هذه إرادة الله ،أنت اجتهدت وما قصرت، قد يكون لك اسم بملحق الناجحين في بداية العام.

خفف كلام أمه عنه بعض معاناته، وزرع فيه أملًا ولو كان بسيطًا.

في اليوم التالي ظهرًا جاءه خبر أن مدير مدرستهم ساءه أن يكون طلاب مدرسته كلهم راسبين، فراجع التربية وحصّل منها أسماء

الناجحين من مدرسته. أرسلها إلى مستخدم المدرسة الذي يسكن في قرية خالد.

ذهب خالد مباشرة إلى المستخدم ليسأل عن نتيجته فكانت المفاجأة أن قال له المستخدم: هات البشارة!! ما يعني أنه ناجح، وعلم منه أيضًا أن خمسة آخرين نجحوا معه، وترتيبه الثاني عليهم. شكر له إخباره، ووعده بهدية، ثم عاد إلى البيت وهو لا يصدق أن الدنيا تسعه.

تابع دراسته في المرحلة المتوسطة ووصل إلى الصف التاسع الذي يسبق المرحلة الثانوية وينتهي بدوره في اختبار على مستوى الدولة. لكن خبر تفوق خالد في الحساب وصل إلى أهل القرية منذ سنوات، واستمر ينمو معه. فذات يوم كان عائدًا من مذاكرته لامتحان الشهادة المتوسطة (الصف التاسع)، وإذ بطالبين أكبر منه سنًا قد رسبا في امتحانهما غير مرة يقفان في طريقه يريدان اختباره في الحساب لكثرة ما سمعا عنه، فقال له أحدهما:

– لدينا مسألة في كتاب الجبر نود أن تحلها لنا.. أتستطيع؟

– أجرّب فلعلّي..

دخلا به إلى مضافة كبيرة يجلس في صدرها رجل بمنتصف العمر يقربهما. سلم خالد على الرجل ثم أخذ ورقة وقلمًا من أحدهما، بينما فتح الثاني له كتاب الجبر على المسألة. قرأها

خالد ثم شرع يحلها بقوله: نفترض أن كذا س فيكون كذا س+ ٢، وهكذا خطوة خطوة، وهما يراقبانه، ما دفع الرجل إلى الاقتراب منه، ولما توصل إلى الحل قال لهما: انظرا الجواب؟ ثم فتح على صفحة الإجابات في نهاية الكتاب ليؤكد لهما صحته. لم ينبسا ببنت شفة. غادرهم والفرح يسربله.

كما شهد مواقف أخرى عززت ثقته بنفسه ومكّنته من تجاوز مستواه الذي لم يكن راضيًا عنه في العربية قياسًا بما هو عليه في الحساب. إذ تعزز لديه حب الحساب كتشجيع معلمي الرياضيات له في مسيرته التعليمية ومعاملتهم الحسنة. فأحد معلميه كان يقول له عندما يخرج ليحل مسائل الجبر أمام الطلاب: ستكون الأول على المدرسة يا خالد. ولم يدر معلم الرياضيات ما جرى لخالد من إهمال معلم العربية وتعامله الفظ معه في الصف الثاني، وعدم التفات المعلمين له ولأمثاله فيما بعد، حيث تراكم هذا التعثر ولم يعالج أولًا فأولًا، فاكتفى الطفل بالنجاح بمستوى دون الجيد بالعربية في كل عام دراسي.

رسالة خالد أردتُ نقلها إلى أولياء الأمور والمعلمين علها تصحح بعض المفاهيم السائدة، وبخاصة عندما يتسرعون في أحكامهم على أبنائهم أو متعلميهم، متوخين الراحة لا معالجة المواقف منذ بدئها؛ لأنهم بتصرفاتهم السريعة طلبًا لراحتهم يدفنون الكثير من المواهب لدى الأبناء، فالطفل في الروضة أو في المدرسة

الابتدائية صفحة بيضاء ناصعة، لديه القدرة على التعلّم والتطور والارتقاء، فقد نجهض هذه المنحة الإلهية، وندفنها ليصبح عالة على أهله ومجتمعه، أو ننمي قدراته ليملك المهارات والخبرات؛ ما يعود بالنفع عليه وعلى مجتمعه.

فهل من معتبر..!

* * *

الحكاية التاسعة

أللزكاة بركة..؟

هو من عاشرتُه ردحًا من الزمن، وخبرتُه عن قرب حتى عرفت أدق التفاصيل عن حياته؛ ما جعلني أثق به، وأصدّق روايته التي نقلها كتجربة شخصية حصلت له غير مرة، وهو يؤدي ركنًا من أركان شريعتنا الغراء، آملًا قبولها لتعود عليه خيرًا في الدنيا والآخرة. فرأيي في صلاح الشخص وصدقه وافقني عليه كثير ممن عرفوه وعاشروه، كما شهدوا له بالسيرة الحسنة، والخلق القويم، وصدق الحديث، وقلة الكلام. فلا يتكلم إلا للضرورة أو إن سئل، ولا يتدخل أبدًا فيما لا يعنيه، ولا يتعرض لسير الناس بالسوء، بل همه تقوى الله ورضاه عنه.

ذات يوم اقترب مني، وقال هامسًا: إن توافر لديك وقت يا صديقي أود أن أقص عليك حدثًا جرى معي منذ زمن، ومازال يتكرر مرة بعد أخرى، فرأيت من الحكمة أن أقصه عليك علك تعزز تفسيري له؛ وإن أحببت أن تُحدّث به غيرك فلا مانع لدي شريطة ألا تذكر اسمي، فقد يكون في نشر الحدث عبرة وعظة ومردود إيجابي على المجتمع والفرد.

نظرت إليه وقلت: شوقتني يا رجل لسماعه، هات فأنا كلي آذن صاغية.

غيّر جلسته وبدا عليه الارتباك كأنه يخشى ألا أصدقه، ولكي يعطي نفسه فسحة أكبر قال بكل تواضع: يا صديقي ممكن أن تعيد على مسامعي أركان الدين الحنيف؟

نظرت إليه باستغراب، وقلت في نفسي: سؤاله أغرب من حديثه، أيعقل ونحن في منتصف العمر ألّا نعرف أركان الإسلام؟

جاريته وقلت:

– يا صديقي يقوم الإسلام على خمسة أركان بيّنها الرسول –صلى الله عليه وسلم بقوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا».

– جزيت خيرًا، اسمح لي بسؤال آخر.

– تفضل هات سؤالك.

– برأيك، أي هذه الأركان عطّله المسلمون في أيامنا؟

– في الحقيقة هناك نسبة وتناسب بين العمل بهذه الأركان، لكن أظن أنك تقصد الركن الثالث أي الزكاة.

– أحسنت يا صاحبي، فحديثي لك في الحقيقة سينصبّ على البركات التي تتقاطر علي كلما أخرجتُ زكاة مالي، فأضرع لله أن

يصل إلى كلّ من عطّل هذا الركن عن عمد أو غير عمد ليكتشف إن هو عمل به كم الخير الذي فاته بتعطيله.

– يا أخي، أسمعني ما جرى معك دون مقدمات، فأنا كما قلت لك مشتاق لسماعه.

– اسمع إذًا يا صديقي العزيز، في بداية التسعينيات من القرن الماضي كنت أتردد على مكتب عقاري لأحد الجيران في عمارتنا بهدف تكوين فكرة عن الاستثمار في العقار، فصادفت في مكتبه شابًا دمشقيًا من ذوي النّعمة يعمل في تجارة البناء ويتعامل مع المكتب. وبتكرار زياراتي للمكتب تعرّفت بالشاب وعرّفني بنفسه، فجرت بيننا أحاديث مختلفة، كما شهدت بعضًا من تعامله مع الزبائن، فبدا لي لطيفًا سمحًا متساهلًا، ما خلف في ذهني انطباعًا بأنه يحرص على كسب رضا الله من جراء عمله ويخاف عقابه. وعرفت منه أنه حديث العهد بممارسة العمل في البناء، فوفاة أبيه المفاجئة اضطرته لأن يكمل مشاريعه ليفي بالتزاماته تجاه الناس.

لكن يبدو أن العمل في البناء أعجب الشاب فاستمر في ممارسته، ووضع نصب عينيه أن يكون بارًا بأبيه ليقال عنه (خير خلف لخير سلف)، فسيرة أبيه على لسان الناس في سوق العقار طيبة للغاية؛ لذلك يطمح الشاب أن يكون امتدادًا لأبيه في العمل والسيرة؛ فيسعى إلى أن تبقى سمعة أبيه وسيرته وهاجتين على ألسنة من يتعامل معهم عساهم يدعون له بالرحمة والمغفرة.

لهذا حرص الشاب في عمله على أن ينهج نهج والده، مستهدفًا إشعارهم بتعامله أنه صورة طبق الأصل عن أبيه لطفًا وسماحة وإخلاصًا وصدقًا.

هذا الانطباع عنه دفعني للتأكد من صحته، فأحببت أن أسأل غير مكتب عقاري في المنطقة عن أصدق تاجر بناء يتعاملون معه، ولا يشكو الزبائن مواعيده أو زيادته على الأسعار إن رفعت الدولة أسعار مواد البناء، فكان جواب أكثرهم أولًا الترحم على والد الشاب قائلين: لم نشهد تاجرًا شبيهًا في السوق بأبي محمد،أي والد الشاب، في صدق الموعد، والالتزام بشروط العقد، والحرص على أن يعطي كل ذي حق حقه من مواد البناء، كما أنه يصبر على المشتري إن تعذر عليه السداد في الموعد.. لقد فقدنا بموته رجلًا فاضلًا محسنًا بما تعنيه الكلمة، لن يملأ فراغه أحد فعسى أن يكون ابنه هو المعني بملء الفراغ. إننا -أصحاب المكاتب- نستبشر به خيرًا. فالشاب مازال في بداية الطريق، ولم يبن بعد إلا عمارتين، فلا يمكننا أن نعطيك فيه رأيًا قاطعًا، فسبحان الذي لا يتغير.

انطباع التجار عن محمد، إضافة لانطباعي، جعلني أفكر بجدية أن أشتري منه عقارًا بمدخراتي التي أعول عليها ساعة كِبَري إن كتب الله لي عمرًا. فأخبرت جاري صاحب المكتب العقاري أن يجمعني به. لم يطل انتظاري ففي صبيحة يوم شتوي بارد اتصل بي جاري، وقال: جارنا تفضل لنشرب فنجان قهوة في المكتب. نزلت إليه فوجدت الشاب عنده، سلمت عليهما وجلست. قدم

لي جاري فنجان قهوة مُرة وقال:

- الأخ محمد لديه طلبك، إن كنت راغبًا في شراء عقار للاستثمار.

قلت: إن شاء الله.

سألني الشاب عن المواصفات المطلوبة بالعقار، وكم المبلغ المرصود له. أجبت عن أسئلته، ثم اقترح علي أن أصحبه إلى محضر جديد يجهزه للبناء لأراه عين اليقين فإن أعجبني موقعه ومواصفاته باعني شقة للاستثمار فيه، متعهدًا بأن يبقيها باسمه حتى يأتي شارٍ فينقلها إلى اسمه مباشرة خدمة لي. ذهبت برفقته إلى المكان فأشار إلى حفرة عميقة في أرض محاطة من الجهات الثلاث بالبنيان القديم والحديث. فعرفت أن الشقة ستكون حشوة، كما يسميها التجار. سألته:

- هل بيع من المحضر شيء؟

- لم تبع من المحضر أي شقة، فاختر منه ما تريد.

عدنا إلى المكتب وشرعنا نتفاوض على السعر، وبعد أخذ وردّ اتفقنا. حجزت شقة بالعقار ثم كتبنا العقد ودفعت له ما توافر لدي من مال. أما الباقي فيكون على دفعات. بارك لي صاحب المكتب، ثم خرجت مسرورًا بما فعلت.

توالت دفعاتي إليه وفق العقد حتى بقي مبلغ زهيد سيُدفع

له مجرد نقل ملكية الشقة إلى اسمي. مضت فترة بعد تسديدي لأقساط الشقة فلم يأتها شار، لكنّ أمرًا مفاجئًا اقتضى سفري خارج البلاد، فكلفت أحد معارفي التواصل مع المكتب لمعرفة مجريات الأمور. فأخبرني في إحدى رسائله أن بقية الشقق في العمارة بيعت، وأن المكتب أبلغه برغبة أحد الزبائن في شراء شقتي، إلا أنه رفض بيعه بالسعر المعروض. شاء الله في هذه الأحيان أن تمر فترة ينكمش بها سوق العقار، فأصبح العرض أكثر من الطلب ما خفّض الأسعار. فالذين يأتون للشراء لا يدفعون سعرًا يشجع على البيع أبدًا. هذا الحدث رتب علي بعض الخسارة؛ لأن شرائي للشقة هدفه الاستثمار ما يعني إخراج زكاة عنها كل حول.

ترددت في البداية، وشككت في الحكم، فشرعت أسأل أهل العلم لأقطع الشك باليقين. فأفتى لي غير شيخ بوجوب إخراج الزكاة. بدأت أخرج الزكاة عن ثمن الشقة كل عام يمر، منتظرًا أن تتحسن الأسعار، لكن فترة الجمود طالت كثيرًا، فذات يوم حمل لي صاحب المكتب رجاء من صاحب العقار أن أكسو الجزء المطل على الشارع من شقتي حتى يأتي بلجنة الكشف من المحافظة فتتسلم العقار، لأن مدة رخصته انتهت، وإن لم أكسُ الواجهة على الشارع فسيترتب على الشاب غرامات أكون سببها.

فكرت مليًا بالموضوع، فالملكية لم تنقل بعد إلى اسمي، ولا أستطيع أن أكلف الشاب غرامة ليس هو طرفًا فيها. فقررت كسوة الشقة بالكامل ثم أعيد عرضها للبيع بسعر آخر. بدأت كسوتها

متحملًا مبلغًا إضافيًا، وبمجرد أن أنهيت الكسوة سلم المالك العقار للمحافظة.

طال انتظاري والشقة لم تبع بعد. فخشيت أن تحصل مشكلات مستقبلًا، فتواصلت مع الشاب، واتفقنا أن نلتقي في المكتب. جاء الرجل على الموعد. تبادلنا التحيات، فإذ بصوت المؤذن يصدح مناديًا (حي على الفلاح). ذهبنا إلى الصلاة، وفي طريقنا إلى المسجد طلبت منه أن ينقل لي ملكية الشقة. فقال:

- أخي وحبيبي في الله، أرجوك الانتظار قليلًا لأن خلافًا وقع بيني وبين شقيقة زوجتي شريكتي في العقار بسبب محدودية البيع وهبوط السعر. ورجاني ثانية أن أتريث بعض الوقت. عملت برجائه وبعد مرور عام على كلامنا السابق التقيت به مصادفة في المكتب، فطلب مني أن أكلف محاميًا لينقل لي ملكية الشقة عن طريق رفع دعوة على شريكته وسيشهد لي بأنني دفعت ثمنها كاملًا والعقد يوثق ذلك، كما أرشدني إلى محاميه الذي يتولى قضاياه.

ذهبت إلى محاميه ووكلته القيام بإجراءات النقل، ولما استدعى المحامي المرأة إلى الفراغ رفضت. تواصلت معه وأخبرته بما جرى. حوقل الشاب أكثر من مرة ثم قال: أقسم بالله العظيم إن تعذر علي نقل الشقة إلى اسمك فسأخصص لك شقة من شقق العقار المسجل باسمي. اترك لي الأمر حتى أتدبره. صبرت عامًا آخر ما ألزمني أن أجدد الوكالة وأدفع مبلغًا آخر، إضافة لإخراج الزكاة.

اقتضت مصالحي السفر خارج البلاد فتواصلت معه لأخبره بسفري فقال: جدد الوكالة للمحامي، فعلاقتي هذه الأيام مع شريكتي أحسن من ذي قبل. فالله أسأل أن نوفق هذه المرة. جددت الوكالة للمحامي وأبلغت صاحبي بوقت سفري، راجيًا منه متابعة موضوع الشقة لدى الشاب والمحامي. فعلى ما يبدو أن الشاب خلال قيام المحامي بإجراءات نقل الملكية تمكن من إقناع المرأة بالذهاب كي تتنازل عن الشقة، وبالفعل لما أخبرها المحامي حضرت في الموعد إلى المحكمة، ولما سألها القاضي عن تسلمها ثمن الشقة أقرت بذلك،وتنازلت عن ملكية الشقة لي.

زف معرفتي لي الخبر مباركًا نقل الملكية. فرحت كثيرًا، وشكرت لله تعالى فضله، لكن السطر الأخير في رسالته مثّل لي مفاجأة كبيرة، ففيه يقول صاحبي: (بعد أسبوع من نقل ملكية الشقة إلى اسمك اتصل صاحب المكتب العقاري يبلغني بوفاة الشاب نتيجة سكتة قلبية أصابته).

كان وقع خبر وفاة الشاب علي مؤلمًا مع إيماني القاطع بأن الحياة والموت بيد الله ولكل أجل كتاب. كم كنت أتمنى أن آراه لأشكر له وقفته معي.

ولما رجعت من السفر قصدت المكتب لأعرف مزيدًا عن الحدث. فحدثني جاري صاحب المكتب أن الشاب خلال السنوات الثلاث بسبب توقف المبيعات في العقار، وتراجع الأسعار جمّع

كل ما يملك من مال إضافة إلى مال إخوته وشقيقة زوجته وأعطاه لأحد التجار الكبار الذين يعملون في الاستيراد والتصدير، لكن إرادة الله اقتضت أن يخسر التاجر مبلغًا كبيرًا حمّل الشاب نسبة من الخسارة كانت كبيرة أفقدته جزءًا كبيرًا من رأس المال، ولما عرض الأمر على إخوته وشقيقة زوجته رفضوا أن يتحملوا أي جزء من الخسائر بل بدؤوا يطالبونه بالمال، ولما تأخر رفعوا عليه قضايا بموجب سندات الأمانة التي أخذوها عليه من قبل. فحجزوا على ما تبقى له من عقار.

لم يستوعب الرجل أن يأتي الحجز على عقاراته من إخوته الذين عمل من أجلهم منذ وفاة أبيه، ونمّى ثرواتهم فتراكم عليه الهم والغم والألم والمرارة من تكاتف عوامل كثيرة ضده، ما أبعده عن الحياة الطبيعية، فغدا لا ينام قبل منتصف الليل. وذات ليلة سرقه النوم بعد مجافاته له فلما أُذن لصلاة الفجر جاءت زوجه لإيقاظه ليذهب إلى الصلاة في المسجد كعادته فلم يستجب. حرّكته بيديها غير مرة فلم يستيقظ، فعرفت أنه فارق الحياة.

هذا الخبر في الحقيقة صعقني على الرغم من إيماني بالقضاء والقدر، وبأن الأعمار والأرزاق كلها بيد الله.

إن مبعث استغرابي هو توقيت الوفاة نفسها التي جاءت بعد أسبوع فقط من نقل ملكية الشقة إليّ..

بكيته بحرقة، وسألت الله له الرحمة والمغفرة، وسجدت لله

شاكرًا أن نجاني من معاناة قد تمتد أشهرًا بل سنوات مع امرأة لا أعرفها أصلًا، ثم تذكرت الزكاة التي كنت أخرجها كل عام مقابل ثمن الشقة.

مر على الشقة المكسوة أكثر من سنة ولم تبع فغيرّت نيتي وأبلغت صاحب المكتب العقاري أن يؤجرها إن وجد لها مستأجرًا، فجاءتني سفرة جديدة. تركت هاتف أخي لدى جاري صاحب المكتب العقاري ليتواصل معه وقت الضرورة. فشاء الله أن يسوق مستأجرًا. اتصل العقاري بأخي وأبلغه بأن يحضر إلى المكتب ليوقع عقد الاستئجار للمستأجر. فرح أخي كثيرًا حتى لم يكد يصدق الخبر، وظن أن الإيجار سيعوض مع الزمن ما دفعته من مال..

لبى دعوة صاحب المكتب ووقع العقد مع المستأجر ثم سلمه الشقة مقابل تسلمه أجرة ستة أشهر مقدمًا. بعد أيام استدعاه صاحب المكتب لاستكمال إجراءات العقد السياحي لدى دوائر الدولة، لكنه تلكأ، فالوكالة التي بحوزته كانت تخص شقة أخرى في مكان آخر.

عدت من السفر فأخبرني جاري بما حصل. تألمت كثيرًا، وقلت: أيعقل في هذا الزمان أن يدخل مستأجر إلى شقة جديدة لم تسكن وبلا عقد رسمي ويخرج منها؟ لا يمكن أبدًا، فقد جاءته الفرصة على طبق من ذهب؛ فهو سيعامل لدى دوائر الدولة وفق القانون القديم أي شبه مالك. أنى لي أن أسترجع الشقة؟ فكّرت بأكثر من

حل فبدأت بأقلها كلفة ومضرة فتواصلت مع جاري العقاري طالبًا إليه أن يتواصل مع المستأجر لنكمل إجراءات العقد السياحي، ويدي على قلبي خوف أن يرفض تثبيت العقد.

استدعى جاري العقاري المستأجر، وحدثه بأن الوكالة التي بحوزة أخي تخص عقارًا آخر، وبأن صاحب الشقة حضر من السفر فيرغب في استكمال الإجراءات. رحب الرجل وأبدى استعداده.

باشر صاحب المكتب بإجراءات العقد السياحي، ولما أنهاها دعانا للتوقيع في المحافظة. تسلمت العقد ولم أتصور ما حصل أنه حقيقة في زمن غدت القيم عزيزة للغاية، حيث استبدل بها الطمع والشجع وحب الدنيا، ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة، إلا من رحمه ربي.

رجعت إلى الله، وقلت: هذه الجائزة الثانية من الله مقابل قيامي بركن الإسلام الثالث، ونويت أن أبقي الرجل الأمين في الشقة مادام محتاجًا إليها، وفعلًا بقي يسكن الشقة عشر سنوات، لم أزد عليه الأجرة إلا بمبلغ زهيد مع علمي أن الشقة أجرتها أكثر بكثير مما يدفعه لي..

تصوّر معي يا من رعاك الله وتسمع حديثي، ويا من عطلت ركن الإسلام الثالث لو رفض الرجل استكمال إجراءات العقد.. ماذا سأفعل؟ أأرفع قضية على أخي والمكتب والمستأجر؟ فإن فعلت فكم من سنوات ستذهب وأموال ستدفع، وعداوات ستحصل ومعاناة ستكون؟ ما رأيك يا صاحبي بكرم الله علي؟

هذا الحدث لم يكن هو الوحيد بل حصل غيره معي، لكنني سأكتفي به يا صديقي. نظر إلي صاحبي وقال: كل هذا يجري لك ولم تخبرني وأنا أقرب الناس لك؟ عزيزي وأخي في الله إن أفضال الله علينا كثيرة فلا تستغرب، وبخاصة إذا كنا نعمل بهدي المصطفى ﷺ انظر إلى آيات القرآن الكريم التي ورد فيها الحث على الصلاة تجدها مقرونة بالحث على الزكاة. أليس هذا دليلًا قاطعًا على منزلتها في الإسلام؟ فلنعد إلى حديث الرسول الكريم المتعلق بمنزلة ومكانة الصلاة نجد مؤشرًا واضحًا عن مكانة الزكاة فيه، حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر.."، وفي رواية أخرى: "أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة". من هذا الحديث نتلمس منزلة الزكاة أيضًا لأنها مقرونة بالصلاة وهي الركن الثالث.

فأدعو من عطل هذا الركن خوفًا على المال إلى التخلي عن فهمه القاصر، فلن ينقص ماله ويذهب بإخراج زكاته بل سيطهّر وينمو بإذن الله.

أمّا يا من تخرج زكاة أموالك فتأكد أن الله سيخلفه بل سينميه، إضافة لأجر عظيم لا يعلمه إلا هو، كما أنك ستبعد الحساد عنك في الدنيا، وغضب ربك يوم الحساب، فمن يأخذ المال ويسد حاجاته به فلن يحسدك أبدًا، فكلاكما مستفيد. الحقيقة أنت مستفيد أكثر؛ لأن المال ينفد والذي يبقى هو سؤال رب العزة

لك عنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾. فأقول لك يا أيها الحبيب: جرب وجرب وأخرج زكاة مال الله لله حتى تنال رضاه وتطهر نفسك وتنمي مالك، فقد تنقذ به محتاجًا أو تنور عقلًا أو تداوي مريضًا، وقد تبني بيتًا، وترسم بسمة على ثغر، وتكون مصدر سعادة من حيث لا تدري، فإلى الزكاة.. الزكاة.

ولنجدد العهد مع أركان الإسلام كلها بالعمل الخالص لوجه الله، فقد يحصل لنا في الدنيا أكثر مما قصّه علي صديقي الصدوق..

* * *

الحكاية العاشرة

مشاعر أم

الإنسان مخلوق ضعيف مهما بلغت قوته، وصحة جسده، ومجافاة الأمراض له، وعلت مناصبه الدنيوية، وأقبلت عليه الدنيا مبتسمة، تمنحه ما تصبو إليه نفسه الأمارة بالسوء، والتي توهمه بأن الله راض عنه. بدليل ما يعيش فيه من رغد جمّلته صحة بدن، وأكّدته يد طويلة قادرة على تلبية حاجاته بكل يسر، فإن هو مارس التجارة ربح، وإن نادى في الملأ لباه الكثيرون، وإن نظر فيما حوله وجد جموعًا تبش في وجهه رهن أمره؛ لذلك لمَ يفكر ولو للحظة أن ضعفًا ما قد يصيبه أو تبدّلًا في نمط حياته سيناله؛ فقد ران على قلبه حتى اعتقد أن ما هو فيه سرمدي؛ لذلك ينقاد لشهواته ونزواته بلا قيد بل يطلب المزيد والمزيد.

أخُيّ الواهم، لحظة من فضلك.. اسمع ما أقول: أنت ضعيف بل أضعف من الضعيف، لأنك مرهون لإرادة خالقك الذي أنعم عليك، ويسّر لك الأسباب، فلا تكن مغرورًا واهمًا، بل زِنِ الأمور بموازين صحيحة حتى لا تبدو كمن يلهث وراء سراب إلى أن تقع الفأس في الرأس، ويصيبك الابتلاء، وقتئذ تتذكر وتتحسر على

ما فرطت فيما مضى، لكن هيهات هيهات أن ينفعك الندم في هذا المقام وقد سبق السيف العذل.

جاري سليم ابتسمت له الدنيا، وانهالت عليه عطايا الله حتى صوّر له خياله القاصر أن الأيام لن تتغير ولن تكون دُولًا. فتهامل في أداء واجب الشكر لله على نعمائه، وسار وراء نزواته ونزوات زوجته ليجد نفسه يومًا بعيدًا كل البعد عن أخلاق الإنسان السوي الذي يتعامل مع الناس بتعاليم الدين وما يقتضيه العرف والتقاليد، حيث استبدل بهذه المقاييس كل ما تمليه عليه زوجته وفق شهواتها ونزواتها؛ لأنه كخاتم في إصبعها ينفذ لها كل مطالبها حرفيًا إلى حد أنها كرّهته أمه التي ربّته منذ صغره، وكانت له الأم والأب بعد وفاة والده.

وصل العقوق بسليم درجة متقدمه، فغدا لا يسمع لأمه ما تقوله، فإن رغبت المسكينة في التحدث إليه تأفف وقال: أماه دعيني إلى وقت آخر. تنصرف عنه وهي مكسورة الخاطر مكلومة، والدموع تسيل على خديها، وتكتم في صدرها ألمًا ومرارة يصعب أن تبوح بهما؛ فزوجته بمكرها تمكنت من بناء حاجز متين بين سليم وأمه يصعب النفاذ منه. فقد يمر عليه اليوم واليومان من دون أن يصبّح أو يمسّي عليها وهما يعيشان في بيت واحد..

سئمت أم سليم نمط هكذا حياة، فلا ولدها إن عاد من متجره مساء يجالسها، ويسأل عن حالها، ولا زوجته نهارًا تحادثها، حتى

ظنت في نفسها الظنون، ووصل الحال بها إذا أرادت منه شيئًا أن تنتظره أمام الباب الخارجي لتقول له ما تريد..

سئمت أم سليم هذه الحياة ففكرت يومًا أن تزور ابنتها الوحيدة، ولكي تطلب منه أن يوصلها إلى ابنتها جلست مساء قرب الباب الخارجي حتى تراه لتقول له: أوصلني غدًا بطريقك إلى بيت أختك فلم أرها منذ زمن.. سمع كلامها فسرّ به، وقال: أنت تأمرين. في اليوم التالي صباحًا حمل سليم أمه في سيارته إلى بيت أخته وأنزلها أمام الباب، وغادر من قبل أن يتأكد من وجود أخته في البيت.

قرعت الأم المسكينة باب البيت غير مرة، فلا مجيب، فوقعت في حيص بيص؛ ماذا ستفعل؟ أتجلس أمام الباب تنتظر ابنتها أم تبحث عن مكان تتوارى به عن أنظار المارة؟ سارت أم سليم على جانب الشارع علها تجد مكانًا تتوارى به عن العيون، وطال بحثها حتى ابتعدت كثيرًا، فوجدت في ناصية الشارع دكة جلست عليها وغطت جزءًا من وجهها. بقيت على حالها حتى الزوال، فخشيت أن تُظَنّ بها الظنون، فعادت أدراجها إلى بيت ابنتها، ولما وصلت قرعت الباب غير مرة بلا مجيب.

تألمت كثيرًا قهرًا ومرارة، وشرعت تحوقل، وانهمرت الدموع بغزارة من عينيها، وتمنّت الموت على أن تعيش مثل هذه اللحظات، وأخذت تدعو لابنها بالهداية والرشاد. قفلت إلى الدكة ثانية، لكنها

سارت ببطء،فكلما قطعت بضعة الأمتار نظرت وراءها، فإذا بسيارة تقف أمام بيت ابنتها، حدقت فيها، فلمحت ابنتها ومعها ولداها ينزلون من السيارة، تنفست الصعداء وتابعت مسيرها حتى تعطي ابنتها بعض الوقت، ولتمحو آثار الدموع التي تغالبها بين لحظة وأخرى كلما تذكرت فعل ابنها ضحى. فتحاول المسكينة جاهدة تنحيتها حتى لا يقسو قلبها عليه، بل تحاول أن تجد له العذر فتحدث نفسها قائلة: مهما طال الزمن فربّي سيهديه إلى الحقيقة..

تابعت أم سليم سيرها حتى كادت تصل إلى الدكة، ثم عادت أدراجها، ولما وصلت البيت قرعت الباب، فسمعت صوتًا يقول: حاضر، هاجمها الفرح بغتة، ونحّى جزءًا من الألم الذي عايشته منذ الضحى جانبًا لترتسم على ثغرها ابتسامة خفيفة وهي ترى الباب يفتح ورأس ابنتها يتسلل لترى من القارع؟ فإذا بأمها أمامها. يا لها من مفاجأة جميلة! أمسكت البنت يد أمها وأدخلتها حتى عتبة الباب ثم شرعت تقبل يديها ورأسها ودموع الفرح تنهمر، فلقاؤهما الأخير مضى عليه قرابة ثلاثة أشهر، ففي ذاك اللقاء وقعت ملاسنة بين سكينة وزوجة أخيها بعدما تلمست أن زوجة أخيها تقسو على أمها التي تتصبر ولا تشكو لابنها صنيع زوجته، فسكينة لم تتمالك نفسها واعترضت على فعل زوجة أخيها بحدة ثم انفردت بأمها وعرضت عليها أن تذهب معها لتقيم في بيتها، لكن الأم رفضت،

وقالت لها: أأغادر بيتًا كوّنته بيدي، فيه ذكرياتي مع أبيك؟ لا يا ابنتي انزعي الفكرة من رأسك ولا تطرحيها ثانية. وأعدك أن أقوم بزيارتك عندما تسمح ظروفي، وهوني على نفسك، فزوجة أخيك قد خانها التعبير..

غادرت سكينة منزل أخيها مشتتة التفكير؛ أتخبر أخاها بصنيع زوجته بأمه أم لا؟ بقي السؤال يشغلها،وكلما ألح عليها أبعدته بوعد أمها بزيارتها، فمنها ستعرف إلام آلت الأمور في بيت أخيها؟

زيارة أمها هذه أزاحت كابوسًا عن كاهل سكينة التي لم يهدأ لسانها عن كلمات الترحيب بأمها. في المقابل كانت الأم تقارن بين ترحيب ابنتها وتأفف سليم إن هي طلبت منه شيئًا، فتقول في سرها: سبحان الله العظيم! كم الفرق بينِكِ وبين أخيك سليم!

تابعت أم سليم سرحانها، وقالت في سرها: ربي اغفر لولدي، ويسّر أمره، واكشف الغطاء عن بصيرته، واكتب له السعادة وطول العمر..

ترحيب سكينة الحار بأمها مسح جزءًا من معاناتها في الضحى، ولما دخل صهرها من الباب ولمحها بشّ بوجهها وأسرع إليها خاطفًا يدها وقبّلها وقبّل رأسها، فبدد صنيعه ما تبقى من معاناتها كبلسم داوى جراحات وحيدها المخطوف منها، ومع ذلك لم ينقطع دعاؤها له بالهداية والرشاد..

ما أحن قلبك يا أم سليم! بسرعة نسيت الحرج الذي لحق بك وأنت تجلسين في الشارع تنتظرين قدوم ابنتك. ألم تفكري لحظة بمآلك لو أن ابنتك خارج المدينة مع زوجها، ماذا ستفعلين وقتها؟

إن حفاوة سكينة وزوجها بها أنستها معاناتها وبمرور الوقت أيضًا، فها هو الليل يتجاوز نصفه الأول وأم سليم تسمر مع صهرها وابنتها التي اقتربت منها لتقول: أماه سريرك جاهز إذا أحببت أن تنامي. سعادة أم سليم بابنتها وصهرها جعلتها لا تصدق أن الليل بدأ في نصفه الثاني، فقالت لابنتها: حقًا لقد مضى على موعد نومي أكثر من ساعتين. ذهبت وتوضأت وصلت بضع ركعات لله، وشكرت له نعماءه، كما ابتهلت إليه أن ينوّر قلب وحيدها.

اعتلت السرير وسلمته نفسها، لكن النوم جفاها، فبدأت تستذكر ترك ابنها لها أمام البيت وحيدة، ومغادرته سريعًا. ولكي تتخلص من صراع العاطفة والعقل لجأت إلى ذكر الله والدعاء بألّا يقسو قلبها عليه، وألا تلاحظ ابنتها أو صهرها شيئًا من هذا القبيل؛ من أجل ذلك بقي لسانها رطبًا بذكر الله حتى سرقها سلطان النوم.

مضى على أم سليم في بيت صهرها أسبوعان لم يتصل سليم سوى مرة واحدة، ثم انفرط عقد أيام الزيارة، وجرت متلاحقة حتى

احتارت أم سليم وغدت تسأل ابنتها يوميًا:

- هل اتصل أخوك؟

فتقول البنت:

- أماه ربما لديه مشاغل كثيرة ربي يعافيه ويرزقه.

- يا ابنتي برضا الله عليك قولي لزوجك أن يوصلني إلى بيت أخيك غدًا لأطمئن عليه، فقد مر على اتصاله قرابة شهر، ولا نعرف أخباره وأخبار أسرته.

- أماه حبيبتي، هل مللت منا؟

- ماذا تقولين يا ابنتي، أيعقل أن تفكري هكذا؟

- أماه، أنت روحي فمكانك في بؤبؤ عيني. كلما مر يوم وأنت في بيتي تكونين أغلى في قلبي، وزوجي يحترمك، وهو سعيد جدًا بك بيننا، ويتمنى أن تبقي معنا.

- سلمت عيناك يا ابنتي، ورضي الله عنك وعن زوجك، وحفظ لكما ولديكما وجعلهما من البررة. يا ابنتي، احرصي على زوجك، وقومي على خدمته برضا ربي عليك.

اغرورقت عينا البنت دموعًا، وخرجت من الغرفة حتى لا تظهر جزعها أمام أمها.

في هذه الفترة شاء الله أن تتوفى إحدى جارات أم سليم، فذهب

سليم في وقت متأخر من اليوم الثاني ليقدم التعازي لأبنائها وذويها، ولما وصل وجد في قاعة العزاء بضعة رجال يستمعون لأحدهم يتحدث عن حنان الأم وتضحياتها في سبيل أولادها، وبأنها سبب في دخولهم الجنة إن كانت راضية عنهم بإذن الله والعكس. وقع الكلام في أذن سليم فخال نفسه المعني به، فحرص على سماعه، فإذا برجل يسوق حادثة ليؤكد بها كم المشاعر التي يكتنزها قلب الأم تجاه أولادها مهما كبر سنهم. فمجريات الحدث أن فلاحًا زار أمه في مساء يوم بارد في بيت أبيه حيث تعيش الأم مع أخيه الأصغر. فيقول الفلاح: لما وصلت إلى البيت، قرعت الباب ففتح لي ابن أخي، قبّلته، ودخلت مباشرة إلى غرفة والدتي. انحنيت أقبّل يديها ورأسها، فسمعتها تلهج بالدعاء أن يبسط الله لنا الرزق، ويرضى عنا، ثم سألتني عن زوجتي وأولادي،ولم جئت من دونهم؟وعدتها في أقرب وقت بأن آتيها بهم. اقتربت منها أكثر، وهمست في أذنها: أماه أأنت مرتاحة مع أخي؟

نظرت إلي نظرة تحمل غير سؤال، وقالت: نعم يا ولدي، أخوك طيب وكريم ويعمل بهدى الله، فماذا تتوقع من شخص هذه صفاته؟

حمدت لله كثيرًا وقلت:

- أماه سؤالي فقط من أجل أن أطمئن، إنّ رغبتك في العيش

ببيت الوالد ضيّعت علي فرصة أن أردّ لك بعضًا من دَينك الكبير علي. فلكم تمنيت أن تعيشي معي في بيتي لأسعد بك!

– ولدي، أنت عيني، وأخوك عيني الأخرى. فأنا أجد راحتي هنا في بيت عامر بذكرياتي وأبيك، فمنذ خمسين عامًا وأنا فيه، فكيف لي أن أعيش في غيره؟

ثم استدركت وقالت:

– لي طلب؛ إن كنت ترغب في سعادتي فنم اليوم قريبًا مني.

في هذه اللحظات دخل أخي الأصغر علينا، فسلم، ثم لحقت به زوجته وأولاده.

نعمنا تلك الليلة بسهرة في حضور الوالدة ذكّرتنا بأيام الوالد، فأخذ كل واحد منا يقص حدثًا علق في ذهنه منها، لتمتد سهرتنا إلى وقت متأخر من الليل. كان الجو ماطرًا وباردًا. حاولت ثني أمي لتسمح لي بالانصراف، لكنها رفضت. فرجوتها قائلًا:

– أماه إن لم أعد فسينشغل بال أسرتي علي.

لكنها أصرّت، وكلفت أخي أن يهاتف زوجتي بأنني سأبقى الليلة عند الوالدة. حاول أخي بدوره أن يقنعها لتسمح له باصطحابي لأنام في غرفة أخرى حتى تأخذ راحتها، لكن محاولاته فشلت، فاستسلم ثم انصرف وأسرته.

قامت مباشرة بعد مغادرتهم، ووضعت لي فراشًا قريبًا من المدفأة خوفًا علي من البرد، ووضعت فوقها أكثر من غطاء صوفي، وذكّرتني بأيام صباي عندما كنت ألبس أكثر من جورب في أيام الشتاء تفاديًا للبرد.

نمت تلك الليلة هانئًا بقربها، ولما صدح المؤذن بالأذان الأول لصلاة الفجر نهضت من الفراش أتلمّس ملابسي على ضوء السراج الخافت كيلا أوقظها من نومها. حاولت جهدي أن أخفف من حركتي، ارتديت ملابسي بهدوء ثم اتجهت إلى الباب لألبس حذائي فلم أجده، بحثت عنه، وطال بحثي، فاحترت في الأمر أأوقظها لأسألها أم أصلّي في الغرفة؟ تعوذت من الشيطان ونظرت إلى المدفأة فلمحت شيئًا قريبًا منها. اقتربت منه أكثر وتلمسته فوجدت ضالتي. صعقني حنانها، ورجعت بذاكرتي إلى أيام طفولتي، فمر أمامي شريط الذكريات، وما كانت تفعله أمي من أجلي، حيث تضع حذائي قرب المدفأة لأجده صباحًا دافئًا. قلت في نفسي: مهما كبرت سني -يا أماه- فبنظرك مازلت صبيًا صغيرًا يخشى البرد.

حملت الحذاء وفتحت الباب بهدوء ثم سرت إلى المسجد أدعو لها بطول العمر والتمتع بصحة جيدة، فكيف أكافئ صنيعها؟ حقيقة يصعب ذلك إلا بتوفيق من الله، وتذكرت قول الشاعر وكأن أمي تعمل به:

احـــذرِ الـبـرد فـكـم شـخـصٍ قتلْ
واتَّـــقْـــهِ تـــتـــقِّ نـــصـــفَ الـعـلـلْ

كان سليم يصغي باهتمام لكل حرف، وفي داخله تتعارك عواطف شتى تطالبه بالانصراف، وعقل يدعوه ليسمع أكثر عن مشاعر الأمهات، حيث بدأ رجل آخر يتحدث عن حدث حصل له هو بالذات. فقال:

يا جماعة أنا حصل لي شبيه بهذا، فمنذ سنوات خلت مرضت أمي، وأنا أعمل خارج البلاد مصحوبًا بأسرتي. فأخبرني أخي بمرضها، ودخولها إلى المستشفى، فكنت كل يومين أهاتفه لأطمئن عليها، لكن في اتصال كان هو الأخير كلمت به أختي، فقالت لي: الحمد لله أمي بخير اطمئن. قلت لها: بعد ثلاثة أيام ستبدأ عطلة منتصف العام عندنا فسأحجز وأنزل لأرى الوالدة. قالت: يا أخي لا تترك أسرتك وحيدة في الغربة، فالوالدة بخير. طلبت منها أن تعطي السماعة للوالدة فقالت: منذ لحظات نامت، لكن خالك قريب منها جاء ليطمئن عليها،يمكنك أن تتأكد منه. تحدثت إليه. فكرر كلام أختي. ودعته، وطلبت منه أن ينقل تحياتي للجميع.

بدأت عطلتنا، فقررت السفر من دون إخبارهم لأقضي أسبوعًا من العطلة قريبًا من الوالدة. كان وصولي مفاجئًا للجميع، لكن فرحة أمي لما رأتني فاقت تصوري، فحمدت لله أن هداني لهذا الفعل.

في ليلتي الأولى سهرت قربها حتى وقت متأخر من الليل ثم أوصلني أخي إلى شقتي. كنت يوميًا أذهب إليها ضحى وأعود قبل منتصف الليل إلى شقتي.

ذات يوم من أيام الأسبوع قررت قضاء مهمة لي خاصة، فلم أزرها ضحى، وعند المساء قلت لا بد من زيارة أهل زوجتي فذهبت إليهم وبقيت حتى وقت متأخر، ما حال دون ذهابي إليها، فعدت مباشرة إلى شقتي.

في اليوم التالي ذهبت إليها مبكرًا، فلما وصلت انتفضتْ وهي المريضة وقالت: أين كنت أمس؟ لقد شغلت بالي، أتدري لو لم تأت اليوم لذهبت أبحث عنك..؟

يا الله، ما هذا الحنان؟! أم على فراش الموت، وهي بحاجة إلى المساعدة تقول هذا الكلام!! سبحان من ملأ صدرك أيتها الأم بالحنان، فأنت تضحين بنفسك في سبيل أبنائك، فأمي تحتاج إلى من يساعدها عندما تذهب إلى الحمام، وتقول لي هذا الكلام..

أماه نحن -الأبناء- لن نقدر على رد جزء يسير من جميلك، فمهما فعلنا بقي فعلنا قزمًا أمام عملاق حنانك ومشاعرك. مضى الأسبوع من زيارتي لها بسرعة، وغادرت إلى أسرتي وأملي بالله أن أراها صيفًا، لكن إرادة الله قضت بعد عشرة أيام من مغادرتي أن يأخذ أمانته، فجاءني خبر الوفاة.. بكيتها كثيرًا، وضرعت لله أن

يتغمدها برحمته الواسعة..

كان سليم ينصت لهذه الكلمات وفي داخله صراع رهيب، جناحاه عاطفة تحاول تثبيته على ما هو عليه، وعقل يقاومها بضخ مزيد من تأنيب الضمير، ما مثّل له كابوسًا عندما بدأ يستعيد معاملته لأمه صاحبة القلب الكبير المكتنز حنانًا، وبالمقابل لؤم امرأة تنكّرت للمعروف ولإنسانيتها.

فماذا سيفعل ليتخلص من هذا الصراع ويعيد لأصحاب الحقوق حقوقهم..؟

ترك بيت العزاء وهو مشتّت الذهن لا يدري أيتوجه إلى بيت أخته ليأتي بأمه، ويطلب منها أن تصفح عنه، أم يخبر زوجته أولًا حتى لا يحدث بينهما خلاف؟

عانى صراعًا مريرًا لم يمكّنه من اتخاذ قرار، فسار في شوارع المدينة بسيارته تائهًا حتى مضى معظم الليل وهو لا يدري ما يفعل..!!

* * *

المؤلف في سطور

• روائي سوري مقيم في دولة الكويت.

• حاصل على أهلية التعليم الابتدائي من دار المعلمين بدمشق ١٩٧٠م.

• إجازة في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق ١٩٧٥م.

• عمل مدرسًا في ثانويات سوريا والكويت، ثم مدرسًا أول، فموجهًا.

• من إسهاماته : المشاركة في تأليف كتب اللغة العربية للصف الثاني في وزارة التربية بالكويت ، كما عمل مصححًا في صحيفة الأنباء بالكويت.

• **المؤلفات:**

– الحب الحقيقي: مجموعة قصصية

– الحرمان: رواية

– الطفلة سوريا: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٩م.

– بيت جن: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٩م.

– حكايا من بلدي: قصص قصيرة. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٠م.

– البريد الإلكتروني: aldomani@yahoo.com

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

الحكاية الأولى: شخصية من بلدي ٩

الحكاية الثانية: علّمني ١٧

الحكاية الثالثة: الحكيم واللص ٢٩

الحكاية الرابعة: ذكيٌّ ولكِن.. ..... ٤٥

الحكاية الخامسة: المعلمة ٥٩

الحكاية السادسة: الطفلة المعلِّمة ٧١

الحكاية السابعة: التغيير المفاجئ ٨١

الحكاية الثامنة: أيُولّد الحب ثقة؟؟ ٩٧

الحكاية التاسعة: أللزكاة بركة..؟ ١١٧

الحكاية العاشرة: مشاعر أم..... ١٣١

المؤلف في سطور..... ١٤٥

شمس
للنشر والإعلام

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net